الزوجة الصالحة

فضيلة الشيخ
محمد متولى الشعراوى

الروضة
نشر وتوزيع

دار الروضة
للنشر والتوزيع
القاهرة : ص ب ٢٢٢٧ فاكس ٥١١٠٤١٨
يطلب من رمز بريدى : ١١٥١١
مركز توزيع الكتاب الإسلامى
٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر
ت ٥١٢٣٦١١

نافذتك على الفكر الإسلامي
العربي والعالمي بما تقدم لك
من روائع الكتب التي تجمع بين
الأصالة والمعاصرة في مختلف المجالات
يديرها ويشرف عليها سامى الطرابيشى





مقدمة

الزوجة الصالحة هى المرأة المؤمنة العابدة ، التى تحفظ نفسها، وتحفظ زوجها فى نفسه وعرضه ، وتحفظه فى ماله وولده، وهى التى تحسن معاملة زوجها وأهلها وجيرانها، وتحسن إدارة بيتها الذى هو مملكتها الخاصة التى جعلها الله سبحانه وتعالى ملكة متوّجة عليها؛ فالزوج قد يقضى فى منزله ساعات قليلة فى اليوم، لكن المرأة تقضى معظم وقتها فى بيتها ، فإن كانت صالحة صلح البيت كله ، وإن كانت فاسدة فسد البيت كله، لِمَ لا ؟ وهى بمثابة القلب للإنسان ، فإن صلح القلب صلح الجسد كله، وإن فسد القلب فسد الجسد كله وضاع صاحبه.

إن المرأة الصالحة لها عمل عظيم فى حياتها وبيتها ، لا يقلُّ- إن لم يَزِدْ- عن عمل الرجل وكدِّه فى الحياة لتوفير المال؛ فالمرأة سكنٌ لزوجها، وحضنٌ لأطفالها، ووزيرة اقتصاد وشئون بيتها، تعامل زوجها- كما أمرها ربُّها سبحانه وتعالى- بالمودة والرحمة والطاعة التامة - فى غير معصية - وتربِّى أولادها تربية إسلامية صحيحة رشيدة ، فتغرس فيهم مبادئ الإسلام العظيم منذ الصغر؛ فينشأوا صالحين فى المجتمع.

ولقد بذل فضيلة الإمام شيخ الإسلام **محمد متولى الشعراوى**- أطال الله فى عمره، ونفعنا بعلمه- جهوداً كثيرة مخلصة فى الدعوة إلى الله، وفى سبيل توضيح معالم الطريق إلى الله؛ ليسلكه من أراد الهداية، ويهتدى به من أراد الفلاح والفوز بنعيم الدنيا والآخرة.

و«الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» وخير معين للإنسان فى الحياة

الزوجة الصالحة: تقوم على شأنه ،وتعينه على طاعة ربِّه، وتحفظه فى حضوره وغيابه، وتنصحه وتشير عليه ، وتخفِّف عنه ولا تثقل عليه ، إذا نظر إليها سَرَّتْه، وإنْ دعاها أجابته ، ولو غاب عنها حفظته.

ولذلك يجب على المسلم -عند الزواج- أن يختار الزوجة الصالحة المتدينة.. «فاظفرْ بذات الدين تربت يداك» أى : امتلأت يداك بالخير وقلبك بالسعادة.

وكذلك على المرأة ووليِّها أن يختارا الزوج الصالح- وإن كان فقيرًا-فإذا جاءكم من ترضون دينه فزوِّجوه . . فالرجل المؤمن الصالح إن أحبَّ زوجته حفظها ، وإن كرهها لم يبخسها حقَّها.

وقد بيَّن فضيلة الشيخ الإمام هذه المسألة خير بيان، بما فتح الله عليه من الفيوضات والإلهامات التى تنم عن كثير من التُّقَى والفضل.

وفصَّل الكلام فى الزواج والحكمة منه، والحكمة من خلق الزوجين - الذكر والأنثى- وعدم أفضلية أحدهما على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، وبيَّن سمات الزوجة الصالحة وكيفية اختيارها ، وآداب العلاقة بين الزوجين، وحقوق النساء- وخاصة حقوق الزوجة على زوجها، أو من كان زوجها- تلك الحقوق التى ينساها بعض الناس الذين يتذكرون حقوق الزوج وينسون حقوق الزوجة الصالحة.

واللهَ نسأل أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجهه . . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ،

محمد دياب



الحكمة من الزواج

إن الزواج هو أساس المجتمع، وأية حركة فى الحياة وفى المجتمع تستند فى الأساس على مسألة الزواج .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن الاستقرار والسعادة للكائن الذى كرّمه وجعله خليفة فى الأرض، وجعل كل الأجناس مسخَّرة لخدمته.

يريد الحق سبحانه أن يصدر ذلك الكائن عن ينبوع منهجى واحد، لأن الأهواء المتضاربة هى التى تفسد حركة الحياة، فأراد أن يصدر المجموع الإنسانى كله عن ينبوع عقدى واحد، وأراد أن يحمى ذلك الينبوع من أن يتعثر بتعدد النزعات والأهواء؛ ولذلك ينبهنا سبحانه إلى هذا الموقف، وهو - عز وجل- يريد سلامة الوعاء الذى سيوجد ذلك الإنسان، بعد الزواج ، فبالزواج ينجب الإنسان وتستمر الحياة بالتكاثر، ولذلك لابد من الدقة فى اختيار الينبوع الذى يأتى منه النسل، ومن هنا تأتى أهمية اختيار الرجل للزوجة المؤمنة الصالحة، وكذلك اختيار المرأة للزوج المؤمن الصالح.

إن للإنسان عمرًا محدودًا فى الحياة وسينتهى ؛لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع فى غيره، كيف؟ نحن نتزوج كى يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات، وهذا استبقاء للنوع الإنسانى.

والحق سبحانه يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً؛ لذلك يأمرنا الحق سبحانه أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر ، فإياك أن تستبقى نوعًا من وعاءٍ خبيثٍ نجسٍ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين، فلا يدرى أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعاً فى الكون، مجهول النسب؛ فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة.

والحصول على الزوجية النظيفة يكون بالزواج. فيختار الرجل أنثى

عفيفة ذات دين وترضى به زوجاً أمام أعين الناس جميعاً، ويصير معروفًا للجميع أن هذه امرأة هذا، وهذا زوجها، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت. وما ينشأ من الذرية بعد ذلك يكون قطعًا منسوبًا إليه، ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينًا أو عاريًا أو جائعًا أو غير معترف به؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانًا مستوفيًا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين، لا يقدحه واحد فَيَسُبُّهُ وينال منه قائلاً: جئت من أين؟ أو من أبوك؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلاً طوال عمره. فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع، وأن تكون هذه الرابطة بالطريق الشرعى.

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة فى الكون، فالتى تحاول أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعى كأم ألا تلقى ابنها الوليد فى البحر بل أمام مسجد؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعى ولذلك ترمى الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونًا عليه.

وهى لا تلقى بوليدها عند خمارة أو دار سينما ، ولكن دائمًا تضعه عند أبواب المساجد، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعى فى مثل هذا المكان؛ لأنها تخاف عليه، لذلك تلفه وتضعه فى أحلى الملابس، وإن كانت غنية فإنها تضع معه المال؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك، والحياء من الذنب هو الذى يجعلها تتخلص من هذا الطفل.

إنها- كما قلنا- : تحتاط بأن تضعه فى مكان يدخله أناس طيبون فيعثر

عليه رجل طيب، يأخذه ويكون مأمونًا عليه. إذن: فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمى فى دين الله ؛ وهذا شىء عجيب.

والله سبحانه يريد أن يبنى بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد فى البيوت؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجًا أمام أعين الناس، ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله.

ومثال ذلك أننا نجد الرجل الذى يحيا فى بيت مُطلٌ على الشارع وله ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها، ولو عرف الرجل أن شابًا يجىء ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلى الرجل بالغيظ والغَيْرة.

لكن ما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها، ويبارك للأم ويأتى بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران، فما الفرق بين الموقفين؟

لماذا يغضب الأب من الشاب الذى يتلصص ؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله، أما الشاب الذى جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردًا وسلامًا. وبعد ذلك يتسامى الأمر، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها.

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول ﷺ : « **الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلِّفوهم ما لا يطيقون، الله الله فى النساء فإنهن عَوانٍ (أسيرات) فى أيديكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله** ».

وما دام الله سبحانه هو الذى خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا، تكون كلمة الشاب: « أريد أن أتزوج ابنتك» بردًا وسلامًا على قلب الأب، ويكون الفرح والاحتفال الكبير ؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر. والله تعالى يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنسانى استبقاءً نظيفًا لا يُخجل أن تجيء منه ولادة، ولا يخجل منه المولود نفسه، ولا يُذَم فى المجتمع أبدًا، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع. واستبقاء النوع هو الذى تأتى من أجله العملية الجنسية، وأراد الله سبحانه أن يشرعها حلالاً على علم الناس ويعرفها الجميع.

وقد سألنى سائل : لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات نحو: « زَوَّجتك موكِّلتى، أو تقول هى : زَوّجتك نفسى» ويقبل الرجل ، وتنكسر العلاقة بكلمة « أنت طالق» ؟ وأجبته : لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بُضْع الزوجة بكلمتين؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة.

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التى تقدمت، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التى تأتى، وبيَّن لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب، والإخصاب يعنى أن يأتى الحيوان المنوى من الذكر لبويضة الأنثى كى ينشأ التكاثر، والتكاثر فى غير الإنسان يتم بعملية قسرية.

ففى الحيوانات نرى الأنثى وهى تجأر بالصوت العالى عندما تنزل البويضة فى رحمها كالبقرة مثلاً، حتى يقول الناس جميعًا: إن البقرة تطلب الإخصاب، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ، ولا تمكن فحلاً آخر منها بعد ذلك، وهكذا يتم حفظ النوع فى الحيوانات.

أما فى النباتات؛ فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال. ونحن نعرف بعض ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات، وقد يعرفها المتخصصون فقط، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة فى عود واحد كالذرة مثلاً: فالأنوثة توجد فى « الشراشيب» التى توجد فى « كوز» الذرة، وعناصر الذكورة توجد فى السنبلة التى يحركها الهواء كى تنزل لتخصب الأنوثة، وكذلك القمح. وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها! فهل يوجد من عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال ؟

إذن: هناك أشياء كثيرة لا نعرفها، لكن لابد من أن تتلاقح إخصابًا لينشأ التكاثر، فيبيِّن لنا الحق سبحانه أن : اطمئنوا فقد جعلتُ الرياح حاملة لوسائل اللقاح، تأخذ الرياح اللواقح إلى النباتات، والنبات الذى يكون تحت مستوى الرياح يسخر الله له أنواعًا من الحشرات غذاؤها فى مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها، فهناك حشرة يجذبها اللون الأحمر، وحشرة يجذبها اللون الأبيض؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فتعلق بها حبوب اللقاح،ثم تذهب إلى النبات الأنثى المتبرجة بالزينة، وهذه العملية تحدث وقد لا يشعر بها أحد.

من الذى يلقح؟ من الذى يعلمها؟ إنه الله القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، فاستبقى لنا الأنواع غريزياً وقسرياً ، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئاً، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)** ﴾.

[الحجر :٢٢]

إذن : فالله تعالى قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تعلم، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدى كل كائن وظيفته وتنتهى المسألة، لكن حين كان لك اختيار، وتوجد مشقات كثيرة فى الإنجاب وحفظ النوع، فقد قرن -سبحانه- حفظ النوع بالمتعة، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل، فلابد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك.

إذن: فإياك أن تلقى حيوانك المنوى إلا فى وعاء نظيف، محسوب لك وحدك؛ كى لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب، ولكيلا يكون مهينًا ولا مدنسًا فى حياته؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها.

ولذلك فالحق سبحانه سيتكلم عن المرأة التى تتصل بامرأة بالسحاق، أو الرجل الذى يكتفى بالرجل باللواط للمتعة، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله. فعندما تنتفع امرأة مع امرأة، وينتفع الرجل بالرجل، نقول لها: أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركتِ حفظ النوع، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع، والحق سبحانه يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معاً. ولابد أن تكون المتعة فى ضوء منهج الله.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) ﴾.

[النساء: ١٥]

و﴿ وَاللَّاتِي ﴾ اسم موصول لجماعة الإناث، وأنا أرى أن ذلك خاص

باكتفاء المرأة بالمرأة.

وماذا يقصد الحق سبحانه بقوله: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً﴾ ؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض، فلا يلغ كل واحد فى عرض الآخر، بل لابد أن يضع لها الحق سبحانه احتياطاً قوياً، لأن الأعراض ستُجرح، ولماذا ﴿أَرْبَعَةً﴾ فى الشهادة؟ لأنهما اثنتان تستمتعان ببعضهما، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنان فيكونوا أربعة، وإذا حدث هذا ورأينا وعرفنا وتأكدنا: ماذا نفعل ؟

قال الحق سبحانه : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ أى: احجزوهن واحبسوهن عن الحركة، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ وقد جعل الله.

والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة ، نقول له : إن كلمة « واللاتى» هذه اسم موصول لجماعة الإناث، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر. ففى هذه الحالة يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾

[النساء :١٦]

الآية الكريمة هنا تختص بلقاء رجل مع رجل، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة، ولكن لماذا يكون العقاب فى مسألة المرأة طلباً للمتعة هو الإمساك فى البيوت حتى يتوفاهن الموت؟ لأن هذا شر ورياء يجب أن يُحاصَر، فهذا الشر معناه الإفساد التام، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة؛ فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تتعود على

الفــاحشــة. ونحن لا نعرف مـا الذى سـوف يحدث من أضــرار، والعلم مازال قاصرًا، فـالذى خَلَق هو الذى شَرع أن **يلتقى** الرجل بالمرأة فى إطار الزواج ومـا يجب فيـه من المهـر والشـهود، و**الحق** سـبـحانه أعـد المرأة للاستقـبال، وأعد الرجل للإرسال، وهذا أمر **طبيـعى**، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له، فالتشويش يحدث.

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التى قررها **مَنْ** خَلَقنا فلابد أن يحدث أمر خاطىء ومضرٌ ، ونحن عندما نصل سلكاً كهربائياً بسلك آخر من النـوع نفسـه.. أى :سالب مع سـالب أو مـوجب مع مـوجب تشب الحرائق، ونقول: « حدث ماس كهـربائى» ، أى: أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة. فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة فى قليل من الأسلاك قد حدث مـا حدث منها من الأضـرار، أفلا تكون التوصيلة الخـاطئة فى العلاقات الجنسية مضرة فى البشر ؟

إننى أقول هذا الكلام ، لأن العلم سيكشف- إنْ متأخرًا أو متقدماً- أن لله سراً ، وحين يتخـصص رجل بامرأة على منهج الله فإن الحق سـبحانه يجعل اللقاء طبيعيّاً. أما إن حدث اختلاف فى الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماسٌ صاعقٌ ضارٌ ، وهذه هى الحرائق الاجتماعية.

إن الذين من قبلنا قد اهتدوا إلى نفـحة من نفحات الله،ولم يركنوا إلى الكسل،بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا مـوصولين بالله سبحـانه،ففطنوا إلى نفحات الله. والحق سبحانه هو القائل:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾.

[فصلت :٥٣]

فإذا كنا قد اهتـدينا إلى معرفة أن اتصال سلك صحـيح بسلك صحيح

فـالكهرباء تعطى نورًا جمـيلاً. أما إذا حدث خطأ فى الاتصـال ، فالماس الكهربائى يحـدث وتنتج منه حرائق ، كـذلك فى العلاقة البـشرية ، لأن المسألة ذكورة وأنوثة.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ .

[الذاريات : ٤٩]

فـإذا كان النور الجـمـيل يحـدث من الاتصال الصـحـيح بين الموجب والسالب فى غيـر الإنسان ، وتحدث الحرائق إن كان الاتصـال خاطئاً ، فما بالنا بالإنسان ؟

وفى بعض رحلاتنا فى الخارج، سألنا بعضُ الناس:

- لماذا عَدَّدتم للرجل نساءً ، ولم تعددوا رجالاً للمرأة ؟

هم يريدون أن يثيروا حفيظة المرأة وسـخطها على دين الله ،حتى تقول المرأة السـاذجة - مـتمردة عـلى دينها- : « ليس فى هـذا الدين عدالة» ؛ لذلك سألت من سـألونى : أعندكم أماكن يستريح فـيها الشبـاب المتحلل جنسياً ؟

فكان الجواب : نعم هناك مثل هذه الأماكن.

قلت: بماذا احتطتم لصحة الناس ؟

قالوا: بالكشف الطبى الدورى المفاجىء .

قلت: لماذا ؟

قالوا : حتى نعزل المصابة بأى مرض.

قلت: أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟

قالوا : لا.

قلت: لماذا ؟ فـسكتوا ولم يجـيـبوا ، فـقلت: لأن الواقع أن الحيـاة

الزوجيـة للمرأة مع رجل واحـد تكون المرأة وعاء للرجـل وحده ، وهذه العلاقة الزوجـية لا ينشأ منها أمراض، ولكن المرض ينشأ حين يـتعدد ماء الرجال فى المكان الواحد.

إذن: فالحق سبحـانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقـاء نظيفاً ؛ لذلك قال:

﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) ﴾.

[النساء: ١٥]

والمقصود بـ «نسائكم» هنا: المسلمـات، لأننا لا نشرع لغير المسلمين ، وطلب الشـهادة يكون من أربعـة من المسلمين ، لأن المسلم يعـرف قيـمة العرض والعدالة. وإن شهدوا فَلْيُنَفَّذْ حكم الله بالحبس فى البيوت.

وقد عرفنا ذلك فـيما يسمى فى العصـر الحديث بالحَجْر الصحى الذى نضع فيـه أصحاب المرض المعدى . وهناك فرق بين من أُصِبْن بـ « مرض مُعْدٍ» ومن أُصبن بـ « العطب والفضيحة».

فـإذا كنا نعزل أصـحاب المرض المعـدى فكيف لا نعـزل اللاتى أصبن بالعطب والفـضيحـة؛ ولذلك يجب أن تظل كل منهمـا فى العزل إلى أن يأتى لكل منهن ملك الموت .

وحدثتنا كتب التشريع أن رسـول الله ﷺ حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين.

فعن عـبادة بن الصامت أن رسـول الله ﷺ قال : « **خُذوا عـنِّى خُذوا عنِّى : البكـر بالبكر جَلد مـائة ونفى سنـة، والثـيِّب بالـثـيِّب جلد مـائة والرجم**».

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصفّى قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد، والثيب بالثيب رجم.

وبعض الناس يقول : إن الرجم لم يرد فى القرآن.

ونقول لهؤلاء : ومن قال : إن التشريع جاء فقط فى القرآن ؟ لقد جاء القرآن الكريم معجزة ومنهجاً للأصول، وكما قلنا من قبل : إن الحق سبحانه قال:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾.

[الحشر : ٧]

وبعد ذلك نتناول المسألة : حين يوجد نَصٌ ملزم بحكم، قد نفهم الحكم من النص وقد لا نفهمه، فإذا فهمنا فله تطبيق عملى فى السيرة النبوية.

فإذا كان الرسول ﷺ لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بالعمل نفسه ، فالأسوة تكون بالفعل فى إقامة الحد ؛ لأن الفعل أقوى من النص، فالنص قد يوجد ولا يطبق لسبب كالنَّسْخ للحكم مثلاً ، أما الفعل فإنه تطبيق، وقد رجم الرسول ﷺ ماعزاً والغامدية ورجم اليهودى واليهودية عندما جاء إليه اليهود يطلبون تعديل حكم الرجم الوارد فى التوراة.

إذن: فالفعل من الرسول ﷺ أقوى من النص وخصوصاً أن الرسول مُشرِّع أيضاً.

وقد يقول قائل: إن الرجم لمن تزوج، فماذا نفعل برجل متزوج قد زنا بفتاة بكر؟

والحكم هنا: يُرجم الرجل وتُجلد الفتاة، فإن اتفقا فى الحالة، فهما يأخذان حكماً واحداً. وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذى يناسبه.

وحينما تكلم الحق سبحانه عن الحدِّ في الإماء- المملوكات- قال:

﴿ فعليهنَّ نصفُ ما على المُحْصنات من العذاب ﴾.

[النساء: ٢٥]

ويفهم من ذلك: الجَلْد فقط ، لأن الرجم لا يمكن أن نقوم بتقسيمه إلى نصفين، فالأمَة تأخذ في الحد نصف الحرة، لأن الحرة البكر في الزنا تجلد مائة جلدة ، والأمَة تجلد خمسين جلدة.

وما دام للأمَة نصف حد المحصنة، فلا يأتي- إذن- حَدٌّ إلا فيما يُنصَّف، والرجم لا ينصَّف، والدليل أصبح نهائياً من فعل رسول الله ﷺ وهو مشرع وليس مستنبطاً، وقد رَجَمَ رسولُ الله ﷺ . ولماذا تأخذ الأمَة نصف عقاب الحرة ؟ لأن الإماء مهدورات الكرامة ، أما الحرائر فلا. ولذلك فهند امرأة أبي سفيان قالت: أوَ تزني الحرة ؟ قالت ذلك وهي في عنف جاهليتها . أي: أن الزنا ليس من شيمة الحرائر، أما الأمَةُ فمهدورة الكرامة نظراً لأنها مجترأ عليها وليست عرض أحد.

لذلك فعليها نصف عقاب المحصنات، وقد تساءل بعض الناس عن وضع الأمة المتزوجة التي زنت ، والرجم ليس له نصف؟

نقول: الرجم فقدٌ للحياة فلا نصف معه، إذن: فنصف ما على المحصنات من العذاب، والعذاب هو الذي يؤلم. ونستشهد على ذلك بآية قرآنية كريمة لنبيِّن الرأي القاطع بأن العذاب شيء، والقتل وإزهاق الحياة شيء آخر، ونجد هذه الآية هي قول الحق سبحانه على لسان سليمان عليه السلام حينما تَفقَّد الطير ولم يجد الهدهد:

﴿ لأُعذبَنَّهُ عذابًا شديدًا أوْ لأذْبحنَّهُ ﴾.

[النمل: ٢١]

إذن: فالعذاب غير الذبح، وكذلك يكون العذاب غير الرجم. فالذي

يحتج به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم؛ لأن الأمَة عليها نصف ما على المحصنات ، والرجم ليس فيه تنصيف نقول له : إن ما تستشهد به باطل ؛ لأن الله سبحانه فَرَّقَ بين العذاب والذبح، فقال على لسان سليمان : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح، والعذاب أيضاً غير إزهاق الروح بالرجم؛ إذن: فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته . . ولنناقش الأمر بالعقل:

حين يعتدى إنسان على بكر ، فما دائرة الهجوم على العرض فى البكر؟ إنها أضيق من دائرة الهجوم على الثيب ؛ لأن الثيب تكون متزوجة غالباً، فقصارى ما فى البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ. أما الثيب فالاعتداء يكون على عرض الزوج أيضاً، وهكذا تكون دائرة الاعتداء أكبر، إنه اعتداء على عرض الأب والأم، والإخوة والأعمام مثل البكر، وزاد على ذلك الزوج والأبناء المتسلسلون. فإذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهى ، فالأبناء طبقة تستديم ؛ لذلك يستديم العار. واستدامة العار لا يصح أن تكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع، فإن سوينا بين الاثنين بالجلد فهذا يعنى أن القائم بالحكم لم يلحظ اتساع جرح العرض.

إن جرح العرض فى البكر محصور وقد ينتهى لأنه يكون فى معاصرين كالأب والأم والإخوة ، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم فى الثيب المتزوجة ولها أولاد يتناسلون ؟ إنها رقعة متسعة ، فهل يساوى الله سبحانه- وهو العادل- بين ثيب وبكر بجلد فقط ؟ إن هذا لا يتأتى أبداً.

إذن: فالمسألة يجب أن تؤخذ مما صفّاه رسول الله ﷺ وهو المشرِّع الثانى الذى امتاز لا بالفهم فى النص فقط ، ولكن لأن له حق التشريع فيما لم يرد فيه نص ! فسنأخذ بما عمله وقد رَجَمَ رسولُ الله فعلاً، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيّاً ، الثيب بالثيب هو الرجم،

والبكر بالبكر هو الجلد، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه، ويكون الحكم منطقياً تماماً، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع ؛ لأن حفظ النوع هو أمر أساسى فى الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه ، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه، ونحسن تربيته ونطعمه حلالاً، ونحفظ النوع بالمحافظة على طهارة المخالطة.

والحق سبحانه وتعالى يمدُّ خَلْقَهُ حين يغفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج ، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله، فيثبت لك أن المنهج سليم . وقد قال الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾.

[التوبة : ٣٣].

فلا يقولن قائل: إن القرآن أخبر بشىء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها.

ونرد عليه: لو فهمت أن الله تعالى قال: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، وقال سبحانه: ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾.

[التوبة: ٣٢] .

وقال سبحانه فى موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾.

[الصف: ٨].

لقد بيَّن الحق سبحانه أن الإسلام يظهر ويتجلى مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرك. ولم يقل سبحانه : إن الإسلام سيمنع وجود أىّ كافر أو مشرك.

وكـيف يكره الكفـار والمشـركون إظهـار الله تعـالى للإسـلام ؟ إنهم لا يدينون بدين الإسـلام ؛ لذلك يحزنـهم أن يظهر الإسـلام على بقيـة الأديان . وهل يظهر الإسـلام على الأديان بأن يسيطر عليـها ويبطل تلك الأديان ؟ لا . إنه هو سبحانه يبيِّن بـالقرآن والسُّنَّة كما يبيِّن لأهل الأديان الأخرى:

إنكم ستُضطرون وتضغط عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مُخلِّصـاً لكم مما أنتم فيـه إلا أن تطبِّقـوا حكماً من أحكام الإسـلام الذى تكرهونه.

وحين تضغط الحياة على الخصم فينفِّذ رأى خـصمه فهذا دليل على قوة الحُجَّة، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولو كره الكـافرون والمشركون، وهذا قد حدث فى زماننا ، فقد رُوِّعتْ أمة الحضارة الأولى فى عالمنا الآن وهى الولايات المتحـدة الأمريكية منذ سنوات بما يثبت صـدق الإسلام فى أنه حين ضمن ووضع للمـخالطات التى تُبقى النوع نظاماً ، وهو التـعاقد العلنى والزواج المشروع، فالحق سبحانه وتعالى قد ضمن صحة الخلق.

لكن الحضارة الأمريكية لم تنتبـه إلى عظمة قانون الحق سبحانه فَرُوِّعت بظهور مرض جديد يسـمى « الإيدز» ، وكلمة «إيدز» مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات : حرف «A» ، وحرف « I» ، و«D».

ومـعنى اسم المرض بالتـرجمـة العربـية الصـحيـحـة: « نقص مناعى مُكتسَب» والوسـيلة الأولى للإصابة بـه هى المخالطة الشـاذة، ونشأت من هذه المخالطات الشاذة فيروسات ، هذه الفيروسات ما زال العلماء يدرسون تكوينها، وهى تفرز سموماً وتسبب آلاماً لا حصر لها ، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية هول الفزع والهلع من هذا المرض.

ومن العجيب أن هذه الفيروسـات تأتى من كل المخالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله.

لقد جـعل الحق سبـحانه وتعـالى عناصـر الزواج «إيجاباً» و «قـبولاً»

و«علانية» وجعل من الزواج علاقة واضحة محسوبة أمام الناس، هذا هو النظام الربانى للزواج الذى جعل فى التركيب الكيميائى للنفس البشرية «استقبالاً» و «إرسالاً».

والبشر حين يستخدمون الكهرباء ، فالسلك الموجب والسلك السالب - كما قلنا- يعطيان نوراً فى حالة استخدامهما بأسلوب طبيعى ، لكن لو حدث خلل فى استخدام هذه الأسلاك فالذى يحدث هو ماس كهربائى تنتج منه حرائق. وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعها الله بمنطق الإيجاب والقبول العلنى على مبدأ الإسلام، فإن التكوين الكيميائى الطبيعى للنفس البشرية التى تُرسِل ، والنفس البشرية التى تَستقبل تعطى نوراً وهو أمر طبيعى.

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجد شاباً ينظر إلى إحدى محارمه، فهو يتغير وينفعل ويتمنى الفتك به، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوالد الفتاة: « أنا أريد خطبة ابنتك لابنى» فالموقف يتغير وتنفرج الأسارير ويقام الفرح.

إنها كلمة الله التى أثَّرت فى التكوين الكيميائى للنفس وتصنع كل هذا الإشراق والبِشْر، وإعلان مثل هذه الأحداث بالطبول والأنوار والزينات هو دليل واضح على أن هناك حاجة قد عُملت وأحدثت فى النفس البشرية مفعولها الذى أراده الله من الاتصال بالطريق النظيف الشريف العفيف.

فكل اتصال على غير هذا الطريق الشريف والعفيف لابد أن ينشأ عنه خلل فى التكوين الإنسانى يؤدى إلى أوبئة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن.

وعلى هذا يكون قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) ﴾.

[النساء: ١٥]

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طَبَّق الرسول ﷺ إقامة الحد .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾

[النساء :١٦]

والحق سبحانه وتعالى توَّاب ورحيم، صفة المبالغة بالنسبة لله تعالى لا تعنى أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية ، فكل صفات الله سبحانه واحدة فى الكمال المطلق.

إننى عندما أقول : « فلان أكَّال» قد يختلف المعنى عن قولى : «فلان آكل» ، فمثل هذا القول مبالغة فى وصف إنسان يأكل بكثرة ، فهل هو يأكل كثيراً فى الوجبة الواحدة، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف بعدد الوجبات ، فبدلاً من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات، عندئذ يقال له: « أكَّال »، أى: أنَّه أكثر عدد الوجبات ، وإن كانت كل وجبة فى ذاتها لم يزد حجمها.

أو هو يأتى فى الوجبة الواحدة فيأكل أضعاف ما يأكله الإنسان العادى فى الوجبة العادية ، فيأكل بدلاً من الرغيف أربعة أرغفة، فنقول : إنه «أكول»، إذن: فصيغة المبالغة فى الخَلْق إما أن تنشأ فى قوة الحدث الواحد، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد.

وقولنا : «الله توَّاب» معناه أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر ، فالتوبة تتكرر. وإذا تاب الحق سبحانه فى

الكبائر أليست هذه تـوبة عظيمة ؟ الله تواب ورحيم لأنه سبـحانه وتعالى يتـصف بعظمـة الحكمـة والقدرة علـى الخلق والإبداع، وهو الذى خلق النفس البشرية ثم قَنَّنَ لها قوانين، جَرَّمَ من يخالف هذه القوانين، وبعد أن جَرَّم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة.

والتقنين فى ذاته يقطع العـذر، فساعة أن قَنَّنَ الحق سبـحانه لا يستطيع واحـد أن يقول: « لم أكن أعلم» ؛ لأن ذلـك هو القانون، وحين يُجـرِّم فهـذا إيذان منه بأن النفس البـشرية قد تضـعف، وتأتى بأشيـاء مخـالفة للمنهج، فنحن لسنا ملائكة، والله سبـحانه حين يقنن يقطع العذر، وحين يُجـرِّم فهـو إيذان بأن ذلك من الممكن أن يحـدث. وبعد ذلك يعـاقب ، وهناك أفعال مُجرَّمة، ولكن المشِّرع الأول لم يجرّمها ولم يضع لها قانوناً، لا عن تقصير منه ، ولكن التجريم يأتى كفرع.

إن الحق سبحانه قدَّر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك، كالسرقة-مثلاً- ولذلك فهـو سبـحانه وضع حَداً للسـرقة، وقد تـضعف النفس البـشرية فتـسرق، أو تزنى؛ لذلك فـالحد موجـود، لكن هناك أشيـاء لا يأتى لها بالتجريم والعقوبة، وكأنه سـبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفىٍّ على أنها مسائل ما كان بتصور العقل أن تكون.

مـثـال ذلك اللواط، لم يذكـر له حَداً ، لماذا ؟ لأن الفطرة السليـمـة لا تفعله، بدليل أن اللواط موجود فى البشر وغير موجود فى الحيوان.

لكن ليس معنى ألا يُجرِّم الحق عملاً أنه لا يدخل فى الحساب، لا، إنه داخل فى الحساب بصورة أقوى ؛ لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن الفـعل من المـمكن أن يحـدث، وحين يتـرك هذه المسـألة بدون تجريم، فـمعنى ذلك أن الفطرة السليـمة لا يصح أن تفعـلها، ولذلك لم يضع لها حداً أو تجريماً، وترك الأمر لرسول الله ﷺ وهو المكلَّف بالتشريع أن يضع حداً لهذه المسألة.

إذن: فعدم وجود نص على جريمة أو عـقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب علـيها، لا ،هناك حساب، فقد تكون العـقوبة أفظع، وقد أمر الـرسول ﷺ بإلقـاء الفاعل للّواط والمفـعول به من أعلى جـبل. إن عقوبتـهما أن يموتا بالإلقاء من شـاهق جبل، إذن: فالعقوبـة هنا أكثر من الرجم.

وهكذا نعرف أن عـدم التجريم وعـدم التقنين بالعـقوبة لأى أمر غـير مناسب للعقل وللفطرة السليمة دليل على أنَّ هذا الأمـر غير مباح، والحق سبحانه وتعالى لم يتـرك تلك الأمور سكوتاً عنها ، ولكن هو إيحاء من طرف خـفى أن ذلك لا يصح أن يحـدث، بدليل أنهـا لا تحـدث فى الحيوانات التى هى أدنى من الإنسان.

وبعد ذلك قد يتعلل الإنسان الفاعل لمثل هذا القبح الفاحش بأنها شهوة بهيمية. نقول : يا ليت شهوتك المخطئة فى التعبير عن نفسها بهيمية؛ لأن البهائم لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبداً، فلا أنثى الحيوانات تقترب من أنثى أخرى ، وكـذلك لا يوجد ذكر حـيوان يقترب من ذكـر آخر، وإذا ما حملت أنثى الحيـوان فإنها لا تسمح لأى ذكر من الحيـوانات بالاقتراب منها.

إذن: فالقبح الفاحش من المخالطة على غيـر ما شرع الله سبحانه يمكن أن نسميهـا شهوة إنسانية ، فالبهائم لا ترتكب مـثل تلك الأفعال الشاذة. والذى يقول عن الشهوة إنها بهيمية فهو يظلم الحيوانات.

والحق سـبحانه وتـعالى - على الرغم من هذه الخطايا - يبـيِّن لنا أنه التواب الرحيم، لماذا ؟

انظر إلى الحكمـة فى التوبة وفى قـبولهـا، فلو لم تحدث مـعصـية من الإنسـان الذى آمن، لفقَد التكليـف ضرورته. فمـعنى التكليف أنه عمـلية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهدها لمقـاومة تنفيذ المعاصى أو لحملها على مشقة الطاعة.

فمقاومة الإنسان للمعاصى خضوعاً للتكليف الإيمانى دليل على أن التكليف أمر صحيح، اسمه « تكليف»وإلا لخلقنا الله كالملائكة وانتهت المسألة. وحين يشرع الله التوبة، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف، قد يضعف فى يوم من الأيام أمام معصية من المعاصى، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه، بل هو يقنن العقوبة، وتقنين العقوبة للعاصى دليل على أنه سبحانه لم يُخرج الذى اختار الإسلام وعصى من حظيرة الإسلام أو التكليف، ولو فرضنا أن الحق سبحانه لم يقنن التوبة لصارت اللعنة مصير كل من يضعف أمام شهوة، ولصار العاصى متمرداً لا يأبه ولا يلتفت بعد ذلك إلى التكليف، يَلِغ فى أعراض الناس ويرتكب كل الشرور.

إذن: فساعة شرع الله التوبة سَدَّ على الناس باب « الفاقدين» الذين يفعلون ذنباً ثم يستمرون فيه، ومع ذلك فهو سبحانه حين تاب على العاصى رحم من لم يعص، فهو القائل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ .

ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكى يكون الوصف معه وقائم به لا محالة، ولكنه أيضًا قال: ﴿ **تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ أى: أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أية معصية من البداية ؛ فالرحمة ألا تقع فى المعصية.

وبعد ذلك يشرِّع الحق سبحانه وتعالى للتوبة فيقول:

﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧)** ﴾.

[النساء: ١٧].

ولنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى ،فالحق سبحانه يقول: ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ وقد يقول قائل: ما دام الحق سبحانه شرع التوبة، فلأفعل ما أريد من المعاصى وبعد ذلك أتوب.

نقول له: إنك لم تلتفت إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت، فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية ، وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآنى:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾.

[النساء: ١٧]

وفعل السوء بجهالة، أى: بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية ؛ بل هو يتجاهل العقوبة؛ لذلك قال رسول الله ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

فلو كان إيمانه صحيحاً ويذكر تماماً أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا، وأن عقوبة الزنا هى الجلد أو الرجم، لما قام بذلك الفعل.

والحق سبحانه يقول: **﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾** فهناك من يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ويُزْهَى بما ارتكب ويفخر بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتساءل لماذا فعلت ذلك ؟

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين: نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة من عاشوا فى عاصمة فرنسا، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة، وما إن يذهب إلى باريس حتى ينغمس فى اللهو، وعندما يعود يظل يفاخر بما فعل من المعاصى.

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة،وبينما هو هناك ارتكب

معـصيـة تحت إغراء وتزيين، إذن: هو إنسـان وقعت عليـه المعصـية دون تخطيط، وبعد أن هدأت شِرَّة الشهوة غرق فى الندم، وبـعد أن عاد استتر من زمن المعصية.

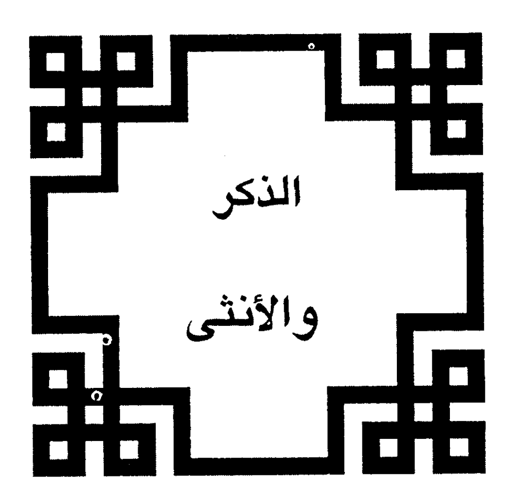
وهكذا نرى الفارق بين المخطط للمعصية ،ومن وقعت عليه المعصية.

والحق سبحانه حين قدَّر أمر التوبة على خَلْقه رَحِمَ الخَلْقَ جميعاً بتقنين هذه التوبة، وإلا لغرق العالم فى شـرور لا نهاية لها، بداية من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملاً له ، والمهم فى التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب .

والرسول ﷺ حين حدد معنى « من قريب» قال :

« **إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**».

❊ ❊ ❊


الذكر
والأنثى

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

[آل عمران: ٣٥]

هذا هو الدعاء وهكذا كانت الاستجابة:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] وبعد ذلك تكلم الحق سبحانه عن الأشياء التى تكون من جهة التربية: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾.

[آل عمران: ٣٧]

كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية، فساعة نادت امرأة عمران عرفت كيف تنادى ونذرت ما فى بطنها. وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾.

[آل عمران: ٣٧]

فالحسن هنا زيادة فى الرضا، لأن كلمة « قبول» تعطينا معنى الأخذ بالرضا، وكلمة «حسن» توضح أن هناك زيادة، وذلك مما يدل على أن الله سبحانه قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا، وبشىء حسن، وهذا دليل على أن الناس ستلمح فى تربيتها شيئاً فوق الرضا، إنه ليس قبولاً عادياً، إنه قبول حسن، ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾[آل عمران: ٣٧] مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما فى بطنها، ألا تربى ما فى بطنها إلى العمر الذى يستطيع فيه المولود أن يخدم فى بيت الله. ولكنها نذرت ما فى بطنها من اللحظة الأولى للميلاد. إنها لن تتنعم بالمولود، ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾. وزكريا - عليه السلام-هو

زوج خالة السيدة مريم - رضى الله عنها- بعد دعاء امرأة عمران ، يجيء قول الحق الحكيم:

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾.

[آل عمران : ٣٦]

لقد جاء هذا القول منها، لأنها كانت قد قالت إنها نذرت ما فى بطنها مُحرَّراً لخدمة البيت، وقولها : « مُحَرَّراً» يعنى أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت، لكن المولود جاء أنثى. فكأنها قد قالت: إن لم أُمكَّنْ من الوفاء بالنذر ، فلأن قدرك سبق لقد جاءت المولودة أنثى.

لكن الحق سبحانه يقول: **﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾** [آل عمران : ٣٦] وهذا يعنى أنها لا تريد إخبار الله تعالى ،ولكنها تريد أن تظهر التحسر، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق؟و يقول الحق سبحانه: « وليس الذكر كالأنثى». فهل هذا من كلامها، أم من كلام الله ؟

قد قالت: **﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾** وقال الله سبحانه: **﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾.**

فكأن الحق سبحانه يقول لها: لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم. أو أن القول من تمام كلامها **﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾**،ويكون قول الحق سبحانه : **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾** هو جملة اعتراضية، ويكون تمام كلامها **﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾** أى: أنها قالت: يارب إن الذكر ليس كالأنثى، إنها لا تصلح لخدمة البيت.

وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه، وسنجد أن المغنى الأول فيه إشراق أكثر، إنه تصور أن الحق الحكيم سبحانه قد قال: أنت تريدين ذكراً بمفهومك فى الوفاء بالنذر، وليكون فى خدمة البيت، ولقد وهبت لك المولود أنثى، ولكنى سأعطى فيها آية أكبر من خدمة البيت، وأنا أريد بالآية التى سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر.

إننى سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ولأننى أنا الخالق ، سأوجد فى هذه الأنثى آية لا توجد فى غيرها، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الحق سبحانه.

وطلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية؛ إن القدرة تخلق بأسباب، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق سبحانه هو خالق الأسباب أيضاً.

إذن: فما دام الخالق للأسباب أراد خَلْقاً بالأسباب فهذه إرادته، ولذلك أعطانا الحق عز وجل القدرة على رؤية طلاقة قدرته؛ لأنها عقائد إيمانية، يجب أن تظل فى بؤرة الشعور الإيمانى ، وعلى بال المؤمن دائماً.

لقد خلق الله تعالى بعض الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم، أما خلق الحق لآدم عليه السلام، فقد خلقه بلا أسباب. ونحن نعلم أن الشيء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية، فما دام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيجيء منهما تكاثر.

إن الحق سبحانه يقول:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾.

[الذاريات : ٤٩]

وعندما يجتمع الزوجان ، فهذه هى الصورة الكاملة ، وهذه الأولى فى

القسمة المنطقية والتصور العــقلى ، وأما أن ينعدم الزوجان فهذه هى الثانية فى القســمة المنطقــية والتصــور العقلى، أو أن ينعــدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثانى ، وهذه هى الثــالثة فى القسمــة المنطقية والتصــور العقلى،

أو أن ينعــدم الزوج الثــانى ويبــقى الطرف الأول، وهذه هى الرابعــة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى.

تلك إذن أربعة تصورات للقــسمة العقلية، وجــميعها جاء من اجــتماع العنــصرين: الرجل والمرأة . أما آدم عليه الســلام فقد خــلقه الله سبــحانه وتعالى بطلاقة قدرته ليكون السبب ، وكذلك خلق حواء من آدم، وأخرج الحق سبحــانه من لقاء آدم وحواء نسلاً ، وهناك أنثى - هى مريم- ويأتى منها المسيح عيــسى بن مريم بلا ذكر. وهذه هى الآية فى الـعالمين، وتثبت قــمة عقدية. فلا يقولنّ أحد : ذكراً ، أو أنثى، لأن نيــة امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكــراً ، وشاء قدر ربكم سبحــانه أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمــران فى الطاعة، لذلك قال : ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى**﴾. أى: أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى.

وقالت امرأة عمران: ﴿ **وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ .

[آل عمران: ٣٦].

إن امرأة عمــران قالت ما يدل على شعورها ، فحــينما فات المولودة- بأنوثتها- أن تكون فــى خدمة بيت **الله**، فقد تمنت امــرأة عمران أن تكون المولودة طائعــة ، عــابدة، فــســمــتــها « مــريم» لأن مــريم فى لغــتــهم معناها: «العابدة».

وأول ما يعــترض العبــودية هو الشيطان . إنه هو الذى يجــعل الإنسان يتمرد على العــبودية . إن الإنسان يريد أن يصــير عابداً، فيــجىء الشيطان

ليزيِّن له المعصية. وأرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغ الشيطان، وقد سمتها « مريم» حتى تصبح « عابدة لله » ، ولأن امرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدى كله لذلك قالت: ﴿ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾.

إن المستعاذ به هو الله، والمستعاذ منه هو الشيطان، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله فى تزيين المعاصى ، فهو يدخل مع المخلوق فى عراك، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه فى عراك، ولذلك قال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أى: يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنه « الخنَّاس» . إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيداً عن الله، ولذلك فالحق سبحانه يُعَلِّمُ الإنسان:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾.

[الأعراف: ٢٠٠]

إن الشيطان يرتعد فرقاً (خوفاً) ورعشة من الاستعاذة بالله. وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصى.

وقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ كيف يجىء الرجل امرأته،ومجىء الأهل هو مظنة لمولود قد يجىء ، فيقول العبد : « اللهم جَنِّبْنى الشيطانَ وَجَنِّبِ الشيطانَ ما رزقتنى» (من دعاء رسول الله ﷺ).

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق ؛ فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذى يأتى بإذن الله . ولذلك قالت امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ . والذرية قد

يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر، ولكن كلمة « ذرية» تطلق على الواحد وعلى الاثنين، وعلى الثلاثة أو أكثر. والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هى عيسى عليه السلام، وتنتهى المسألة . وبعد دعاء امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ يجىء قول الحق سبحانه:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾.

[آل عمران: ٣٧]

وكلمة « آدم» حينما تتكلم بها تجدها - فى اللغة - مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحق الأعلى سبحانه الذكورة والأنوثة ؛ لأنه من تزاوجهما سيخرج النسل. إذن: فكان لابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد. فالذكر والأنثى، هما بنو آدم، ومنهما ينشأ التكاثر، لكن العجيب أن الله تعالى حين سمى آدم ونطقناه اسماً مذكراً وسمى « حواء » ونطقناه اسماً مؤنثاً ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وُجِدَ منه الخلق هو «نفس» ، لقد قال الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾.

[النساء : ١]

لقد سمى الحق سبحانه آدم بكلمة نفس، وهى مؤنثة ، إذن: فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير، ولكن« التذكير» هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمَّياتها الحقيقية وكذلك التأنيث. إن الحق سبحانه يطلق

على كل إنسان منا « نفس» وهى كلمة مؤنثة، وحينما تكلم الحق سبحانه كلاماً آخر عن الخلق قال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾.

[الحجرات : ١٣]

وكلمة « ناس» تعنى: مجموع الإنسان. وهكذا نعرف أن كلمة «إنسان» تُطلق مرة على المذكر، ومرة أخرى على المونث. إذن: فالحق سبحانه قد أورده مرة لفظاً مذكراً، ومرة أخرى أطلق لفظاً مؤنثاً، وذلك حتى لا نقول: إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لنتعارف بها:

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾.

[الحجرات :١٣]

ومعنى « لنتعارف» أى: أن يكون لكل منا اسمٌ يُعرَف به عند الآخرين. وفى حياتنا العادية -ولله المثل الأعلى- نجد رجلاً عنده أولاد كثيرون، لذلك يُطلق على كل ابن اسماً ليعرفه المجتمع به، والعجيب فى هذه الآية الكريمة : **﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾** أننا نجد كلمة « شعوباً» مذكرة وكلمة « قبائل» مؤنثة. إذن: فلا تمايز بالأحسن، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف . والحق الأعلى سبحانه يقول:

﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾.

[العصر : ١ - ٣]

إذن: فما وضع النساء اللاتى آمنَّ ؟ إنهن يدخلن ضمن « الذين آمنوا» ولماذا أدخل الله المؤنث فى المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل، والمؤنث جاء منه فرعًا. إذن: فالمؤنث هو الذى يدخل مع المذكر فى الأمور المشتركة فى الجنس.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾.

[البقرة : ٢١]

وهذا يعنى أن « المؤنث» عليه أن يدخل فى تكليف العبودية لله.

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس. وبنوعيه: الذكر والأنثى . وفى الأمر الخاص بالمرأة، يحدد الله تعالى المرأة بذاتيتها . فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾.

[الأحزاب : ٣٦]

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد: الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فمثلاً نجد زوجاً يريد تطليق زوجته، فيأتى الحق سبحانه بتفصيل يوضح ذلك.وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة، فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فها هو ذا قوله الحكيم:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

[الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣]

إن كل ما جاء في هذه الآية الكريمة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبي ﷺ، فالخطاب الموجَّهْ يحدد الأمر بدقة « لستن» ، و«اتقيتن»، و« لا تخضعن»، و « قرن» ، و« لا تبرجن» . والكلام في هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتي لها بضميرها مؤنثاً.

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق سبحانه يأتي بالأمر شاملاً للرجل والمرأة ويكون مذكراً ، ولذلك فعندما قالت النساء : لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ؟، جاء قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾.

[الأحزاب : ٣٥]

هكذا حسم الحق الأمر ، وقال سبحانه تأكيداً لذلك:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾.

[النساء : ١٢٤]

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان في وصف واحد هو :**﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾** إذن: فعندما يأتي الأمر في المعنى العام الذى يُطلب من الرجل والمرأة ،

فهو يُضمر المرأة فى الرجل لأنها مبنية على الستر والحجاب، مطمورة فيه، داخلة معه . فإذا قال الحق سبحانه لمريم :﴿ وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ فالركوع ليس خاصّاً بالمرأة حتى يقول : « مع الراكعات» ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة، ولذلك جاء الأمر الإلهى لمريم عليها السلام بأن تركع مع الراكعين فى قوله تعالى:

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾.

[آل عمران: ٤٣]

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾.

[النساء : ١]

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ومعنى « اتقوا ربكم» أى: اجعلوا بينكم وبينه وقاية، وماذا نفعل لنتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلهاً ، وتؤمن أنه إله بعقلك،وهو سبحانه وتعالى يعرض لك القضية العقلية للناس فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ ولم يقل: اتقوا الله، لأن كلمة «الله» مفهومها العبادة، فالإله معبود له أوامر وله نواه، لم يصل الحق سبحانه بالناس لهذه بعد، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية، والرب هو : المتولى تربية الشىء، خلقاً من عَدَم وإمداداً من عُدْم، لكن أليس من حق المتولى خلق الشىء، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة. ونحن نرى الآن

أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذى صنعه قانون صيانة، فهل يخلق الله سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم : اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة ؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم ﴾.

إذن: فالمطلوب منهم أن يتقوا، ومعنى يتقوا: أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم، وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهوداً له بها ؟ هو سبحانه يقول: **﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم﴾** كأن خَلْق ربنا لنا مشهود به، وإلا لو كان مشكوكاً فيه لقلنا له : إنك لم تخلقنا.

ولله المثل الأعلى: أنت تسمع من يقول لك: أَحْسِنْ مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مُقِرٌّ بأنه صنع أم لا ؟ فإذا أقررت بأنه صنع ما صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام. إذن: فقول الله سبحانه : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم ﴾** فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد، فأراد -سبحانه- أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشيء الذى نؤمن به جميعاً- وهو أنه سبحانه قد خلقنا- إلى الشيء الذى يريده وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة « رب» ولم يقل : « اتقوا الله» ، لأن مفهوم «الرب» هو الذى خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْم ، وتعهد، وهو المربِّى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾.

[العنكبوت :٦١]

إذن: فقضية الخلق قضـية مستقرة؛ وما دامت قضية مـستقرة فمعناها:

ما دمتم آمنتم بأنى خـالقكم فلى قدرة إذن، هذه واحـدة، وربيتكم؛ إذن :فلى حكمة، وإلـه له قدرة وله حكمة، إمـا أن نخاف من قـدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾. لو لم يقل الحق سبحانه: ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ لما كملت ، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد:

﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)** ﴾.

[الذاريات :٤٩]

إذن: فخلقكم من نفس واحدة وخلق منهـا زوجها هنا ، والناس تريد أن تدخل فى متاهة: هل ﴿ **خَلَقَ مِنْهَا** ﴾ المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أى: من نفس آدم ؟ أناس قـالوا ذلك، وأناس قـالوا : لا، «منهـا» تعنى :من جنسها، ودللوا على ذلك قائلين: حين يقول الله تعالى:

﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾.

[التوبة :١٢٨]

هل أخذ الله محمـداً ﷺ من نفوسنا وكوَّنه ؟ لا ، إنما هو رسول من جنسنا البـشرى، وكأنه سـبحانه قـد أشار إلى دليل؛ لأن خَلْق حـواء قد انطمـست المعـالم عنه، ولأنه أعـطانا بيـان خلق آدم وتسـويتـه من طين ومراحل خلقه إلى أن صار إنســاناً، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول، وبعد ذلك تكون حـواء مثله، فيكون قوله سبحانه : «**خَلَقَ مِنْهَا**» أى: من جنسها، خلقـها من طين ثم صوَّرها. . . إلخ؛ولكن لم يعد علينا التجربة فى حـواء كما قالها فى آدم ، أو المراد من قوله : «منـها» أى: من الضلع، وهذا شىء لم نشـهد أوله، والشىء الذى لم يشهده الإنسان فـالحجة فيه تكون ممَّن شهـده، وسبحانه أراد أن

يرحمنا من متــاهات الظنون فى هذه المسألة: مسألة كـيف خُلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كيفــية خلقك ليس لك شأن بها، فـالذى خلقك هو الذى يقول لك فاسمع كـلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجـريبى ؛ولذلك عندما جاء «دارون» وأراد أن يتكبـر ويتكلم ،جاءت النظرية الحـديثة لتـهدم كـلامه، قالت النظرية الحديثة لدارون: إن الأمور التى أثرت فى القرد الأول ليكون إنساناً، لماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناساً وينعدم جنس القرود ؟! وهذا سـؤال لا يجيب علـيه دارون؛ لذلك نقـول : هذا أمـر لم نشهـده فيجب أن نستمع إلى من فعل ، والحق سبحانه يقول:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾.

[الكهف :٥١]

وما دام لم يشهـدهم، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتى بعلم فـيها ؟ إن أحـداً لا يأتى بعلم فـيـهـا، وبعد ذلك يـرد على من يجىء بادعـاء علم فيقول: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ،معنى مضلين: أنهم سيضلونكم فى الخلق؛ كأن الله أعطانا مناعة فى الأقوال الزائفة التى يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ،فقد بيَّن لنا طبيعة من يضللون فى أصل الخلـق وفى كيـفيـة الخلق، فـهم لم يكونوا مع الله سبحانه ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية الخلق؛فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذى يقول كيف خلقتم وعلى أية صورة كنتم، ولكن من يـقـول كـذا وكـذا، هـم المضللون ، و«المضللـون» هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ولماذا لم

يقل: خلقكم مـن زوجين ؟ لأنه عندمـا يردّ الشيء إلى اثنين قـد يكون لواحـد من الاثنين هوى، وإنما هذه ردت إلى واحـدة فـقط، فيـجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة، لأنكم مردودن إلى نفس واحدة، أما عن نظرية « دارون» وما قاله من كلام فقد قـيض الله لقضية الدين- وخاصـة قضية الإسلام- علـماء من غيـر المسلمين اهتدوا إلـى دليل يوافق القرآن، فـقام العالم الفرنسى « مونيه» ، عندمـا أراد أن يرد على الخرافات التى يقولونها من أن أصل الإنسـان كـذا وكـذا،وقـال : أنا أعـجب ممـن يفكرون هذا التفكير، هل تُوجِد المصادفـة ما نسميه « ذكراً» ثم تُوجِد المصادفـة شخصاً نسمـيه «أنثى» ويكون من جنسـه لكنه مخـتلف معه فى الـنوع بحيث إذا التقيا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثانى ؟

كيف تفعل المصادفة هذه العملية ؟

سنُسلِّم بأن المصادفة خلقت آدم ، فهل المصـادفة أيضاً خلقت له واحدة من جنسه، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التـقيا معا ينشأ بينهما ميـل عاطفى جارف وهو أعنف الغـرائز ، ثم ينشأ منهمـا تلقيح يُنشىء ذكراً كـالأول أو ينشىء أنثى كالثـانى ؟ أيَّةُ مصـادفة هذه ؟ هذه المصـادفة تكون عاقلة وحكيمة ، هم سموها مصادفة ونحن نسميها الله.

لقد ظن « مـونيه» -هداه الله إلى الإسلام وغـفر له- أنه جـاء بالدليل الذى يرد به على دارون، نقـول له : إن القرآن قد مس هـذه المسألة حين قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ ، وهذه هى العظمـة ، إنه خلق الـرجل وخلق الأنثى ؛ وهى من جنسه ، ولكنهـا تختلف عنه فى النوع بحيث إذا التـقيا معـاً أنشأ الله منهـما رجالاً ونساءً. إذن: فهذه عملية مقصـودة، وعناية وغاية وحكمة، إذن: فالآية الكريمة: ﴿**الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾. جاءت بالدليل الذى هُدِى إليه العالم الفرنسى « مونيه» أخيراً.

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله: «بَثَّ» أى: « نشر» وسنقف عند كلمة «نشر» لأن الخلق يجب أن ينتشروا فى الأرض، كى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض.

و «النشر» معناه: تفريق المنشور فى الحيز، فهناك شىء مطوىٌّ وشىء آخر منشور، والشىء المطوى فيه تجمع، والشىء المنشور فيه تفريق وتوزيع؛ إذن: فحيز الشىء المتجمع ضيق ، وحيز الشىء المبثوث واسع، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: «وبث منهما» أى: من آدم وحواء ﴿رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾واكتفى بأن يقول: « نساء» ولم يقل: كثيرات، لماذا؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة. وأنت إذا نظرت مثلاً فى حقل فيه نخيل ، تجد كم ذكراً من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين.

إذن: القلة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر مُخصِّب ويستطيع الذكر أن يخصِّب آلافاً . فإذا قال الله سبحانه: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ﴾ فالذكورة هى العنصر الذى يفترض أن يكون أقل كثيراً، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة؟ لابد أن يكون أكثر، والقرآن يكون أقل كثيراً، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ فلابد أن يكون أكثر، والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ لأن المتكلم هو الله سبحانه ، ولكن إذا نظرت لقوله : «وبث منهما» أى :من آدم وحواء وهما اثنان ﴿ رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ فتكون جَمْعاً، وهذا؛ ليدلك على أن التكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة.

ونريد أن نفهم هذه كى نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق سبحانه؛ فهو القائل: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر . وبعد ذلك يبث من المبثوث الثانى مبثوثا ثالثاً ، وكلما امتددنا فى البث تنشأ كثرة، وعندما تنظر لأى بلد من

البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جداً من تعداده الآن، مثال ذلك: كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين، ومن قرنين كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل، ومن عشرين قرناً كان أقل، إذن: فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد، لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء وسيبث منهم أيضاً عدداً أكبر.

إذن: فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة في السكان، ونحن نرى ذلك في الأسرة الواحدة، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله في عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد. إذن: كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضي يقل؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء.

فعندما يقول الحق سبحانه إنه خلق آدم وحواء، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله ستُرجعه لهما ، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين، فمن أين جاءوا ؟ الحق سبحانه يبيِّن لنا ذلك بقوله: **﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾** [الحجرات: ١٣] وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء . وكان من الضروري أن تأتي هذه الآية الكريمة كي تحل لنا اللغز في الإحصاء، وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضي قل التعداد إلى أن يصير وينتهي إلى اثنين، وإياك أن تقول: إلى واحد، لأن واحداً لا يأتي منه تكاثر ، فالتكاثر يأتي من اثنين ومن أين جاء الاثنان ؟ لابد أن أحداً خلقهما ، وهو قادر على هذا، ويعلمنا الله ذلك فيقول عز وجل: **﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾** ونأخذ من «بث»: «الانتشار» ، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتقع في حيرة وتقول: نسلسل الخلق حتى يصيروا

اثنين ، والاثنان هذان كيف جاءا ؟ - إذن: لابد أن نؤمن بأن الله سبحانه قد أوجدهما من غير شيء.

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ﴾ لأن النشر في الأرض يجب أن يكون خاصاً بالرجل، فالحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ انتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا من فَضْلِ اللَّه ﴾.

[الجمعة : ١٠]

وهو القائل سبحانه:

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِه ﴾.

[الملك : ١٥]

والأنثى تجلس فى بيتها تديره لتكون سكناً يُسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون، وهى بذلك تؤدى مهمتها.

وبعدما قال: «اتقوا ربكم» يقول: «اتقوا الله» . لقد قدَّم الدليل أولاً على أنه إله قادر، وخلقكم من عدم وأمدَّكم وسخَّر العالم لخدمتكم، وقدم دليل البث فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله، فلابد أن تتلقوا تعليماته، ويكون معبوداً منكم ، أى :مطاعاً ، والطاعة تتطلب منهجاً : افعل ولا تفعل، وأنزل الحق سبحانه القرآن كمنهج خاتم ، ويقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِه وَالأَرْحَامَ﴾ . [النساء: ١].

إنه- سبحانه وتعالى - بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به بَيَّن لهم: أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التى تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم.

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً، تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك ، لقد أخذ الحق سبحانه منهم

الدليل، فكونك تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك فلابد أنك سألته بمعظَّم، إذن: فتعظيم الله أمر فطرى فى البشر ، والمطموس هو المنهج الذى يقول: افعل ولا تفعل. والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو، ويطلب حاجة تهمه من آخر، فهو يقول له: سألتك بالله؛ أن تفعل كذا. وما دام قد قال: سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هى أن الله هو الحق، وأنه هو الذى يُسأل به، وما دام قد سُئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله.

إنكم فى الأمور التى تريدون بها تحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسألون أيضاً بالأرحام وتقولون: بحق الرحم التى بينى وبينك، أنا من أهلك، وأنا قريبك، وأمُّنا واحدة، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر. ولماذا جاءت«الأرحام» هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يجعلون المسئولية من الفرد على الفرد طافية فى الفكر، فما دمت أنا وأنت من رحمٍ واحدة ، فيجب أن تقضى لى هذا الشىء. إذن: فمرة تسألون بالله الذى خلق، ومرة تسألون بالأرحام لأن الرحم هى السبب المباشر فى الوجود المادى ، ومثال ذلك قول الحق سبحانه:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

[النساء :٣٦]

لقد ذكر الحق سبحانه الوالدين اللذين هما السبب فى إيجادنا، والله يريد من كل منا أن يبرَّ والديه، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذى أوجدهما، وأن يُصعِّد الأمر قليلاً ليعرف أن الذى أوجدهما هو الله سبحانه.

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، لأن كلمة «اتقوا» تعنى: اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر

الطاعة، واجتناب ما نهى الله عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، والرقيب من « رقب» إذا نظر ويقال: «مرقب»، ونجد مثل هذا المرقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسة، حيث يوجد «كشك» مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كى يراقب. ومكان الحراسة يكون أعلى دائماً من المنطقة المحروسة، وكلمة « رقيب» تعنى: ناظراً عن قصد أن ينظر، ويقولون: فلان يراقب فلاناً أى: ينظره، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إنْ كان مراقباً، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾. فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً -ولله المثل الأعلى.

ونحن نجد الإنسان قد يبصر ما لا غاية له فى إبصاره، فهو يمر على كثير من الأشياء فيبصرها ، لكنه لا يرقب إلا من كان فى باله. والحق سبحانه رقيب علينا جميعاً كما فى قوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾.

[الفجر : ١٤]

وانظروا إلى قول رسول الله ﷺ فيما حكاه عن ربه سبحانه:

« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».
[السجدة: ١٧].

وبذلك تنتقل الصورة إلى شىء جديد، وهو: التوازن بين أفراد الجنس الإنسانى ، كل هذا الكلام كى يُحفظ الجنس الإنسانى مع بعضه، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعى الجنس الإنسانى، والجنس الإنسانى فيه ذكورة وفيه أنوثة. ونعرف أن كل جنس من الأجناس لا ينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس، وفيه شىء مفترق يجعل هذا نوعاً وذاك نوعاً أخر ولو لم يكن

فيه شيء مشترك ، وما دام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة. والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر، فالذكر والأنثى يشتركان فى مطلوبات الجنس، وبعد ذلك ينفردان فى مطلوبات النوع، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد ، والأفراد أيضاً ليسوا مكررين، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله تفوُّق فى مجال كذا وكذا، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشرى.

وما دام الجنس البشرى قد انقسم إلى نوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء خصوصية. وربنا سبحانه وتعالى لا يأتى- حتى فى البنية العامة- ليجعل الجنسين مستويين فى خصائص البنية، صحيح أن البنية واحدة: رأس وجذع وأرجل ، إنما يميز بنية كل نوع بشيء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز. ولذلك فالذين يقولون : نُسوِّى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم: المرأة لها تكوين خاص، والرجل له تكوينه الخاص، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها - التى لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها - معطلة لا يقوم بها أحد . إذن: فأنت حَمَّلتها فوق ما تطيق وأنت مخطىء؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى.

إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخلق جنساً ،وساعة يقسم الجنس إلى نوعين، يبيِّن : تنبهوا إلى أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، ما هو؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالَب أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر فى عقيدته الإيمانية، الاثنان متساويان فيها، ولا يفرضها واحد على الآخر، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخيص الذكورة وتشخيص الأنوثة فى الأمر الأوليِّ للإيمان، وإن اختلفت فى الأمر الثانوى للأحكام ، فيقول:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ

عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾.

[التحريم: ١٠].

وهذان رسولان، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد، إذن: فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل، ولا أحد تابع لآخر فى هذه المسألة أبداً. ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾.

[التحريم : ١١].

فرعون الذى ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم امرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها:

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾.

[التحريم :١١].

إذن : ففى مسألة العقيدة الكل فيها سواء - الذكورة والأنوثة - فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأى قد يعزّ على كثير من الرجال. ولنا المثل من زوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» وموقفها فى صلح الحديبية فعندما يأتى الرسول ﷺ ليعقد المعاهدة، ويحزن أصحابه ومنهم عمر - رضى الله عنه- الذى قال: أنقبل الدنيَّة فى ديننا فيقول له سيدنا أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-: الزم غرزك يا عمر إنه رسول الله. فدخل رسول الله ﷺ مُغضَباً، طبعاً من حمية عمر وحزن الصحابة، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية، لكن رسول الله ﷺ يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها: هلك المسلمون « ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى ؟ فقالت يا رسول الله : لا تلمهم فإنهم

قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، يا نبى الله أُخْرُجْ إليهم ولا تكلّم أحداً كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك».

لقد وقّع رسول الله ﷺ صلح الحديبية وانتهت المسألة . ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله فى هذه المسألة، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول ﷺ: سأبين لكم: أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لا تعرفونهم، إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة، أى: ما تكرهونه ويشق عليكم؛ مصداقاً لقول الحق تعالى:

﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾.

[الفتح :٢٥]

لو تزيلوا أى: لو تميز المؤمنون فى منطقة لعاقبنا الكافرين عقاباً شديداً . إذن: لقد بيّن لهم العلّة، فرضى الكل، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا أم سلمة، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك فى قصة بلقيس، لقد فكرت بلقيس فى الرجل الآتى ليزلزل ملكها : يا ترى هل هو طالب مُلْك؟ فجاء على لسانها فى القرآن الكريم:

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾

[النمل :٢٩ -٣٢]

فمـاذا قال القـادة ؟ قالوا : لا ، هذه ليست مـسألتنا ، وجـاء القرآن بقولهم:

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيـــدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾.

[النمل :٣٣]

كان رجل الحرب يُؤتمر فقط ، يحـارب أو لا يحارب، لكن الذى يقدِّر هذا هم الساسـة الذين ليس عندهم حمـية وحركـية القـتال. نقـول لقائد الجند: أنت تنتظر الأمـر ، وتجعل الـساسـة الهادئين يفكرون في عـواقب الأمور؛ لذلك قـال قادة الجند لبلـقيس: **﴿ نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾** لقد وضعوا الأمر فى رقبتها وهى امرأة ، ففكرت : سأُجرِّب وأختبـره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين؛ فأرسلت هدية له،وقد جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقَّى الهدية:

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾.

[النمل :٣٦]

فعـرفت بلقيس أن المُلْكَ ليس هدفـه ، وبعد ذلك عـرفت أنه صاحب رسالة، فقالت : أذهب له وأُسلم ، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت:

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ .

[النمل :٤٤]

يعنى: أنا وهو أصبـحنا عبيداً لله ، هذه رفـعة الإيمان؛ فلا غضـاضة ما دامت هى وهو عـبيداً لإله واحـد، وبلقيس امـرأة ولم يحرمـها الحق سبـحانه من الرأى الحـسن أيضاً ومن الأداء الجـميل، وهى عندمـا ذهبت

ووجدت عرشها وقد جاء به مَنْ عنده عِلْمٌ من الكتاب وأقامه، لقد تركت العرش فى بلـدها وجاءت إلى سليمـان فوجدت عـرشهـا، وكان لابد أن يلتبس عليها الأمر، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾.

[النمل :٤٢]

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة:

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾.

[النمل :٤٢]

هى امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر. لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً فى إطار نوعيتها ، ولا تعتـبر النقص فى شىء للرجل أنـه نقص فيهـا ، فإذا مـا كان عندها كمال لا يوجـد عند الرجل فلتعلم أنه حتى فى البنيـة يختلف الرجل عن المرأة؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ولها عاطفة فياضة، وفيض حنان ، والرجل فيه صلابة حزم وعزم، إذن: فكل واحد معدّ لمهمة. فلا يقولنَّ أحد: أنا ناقص فى هذه ، لكن انظر إلى غيرك ،تجده ناقصاً فى شىء وهو عندك كامل.

ويأتى الدين ليوضح: يا مـؤمنون ، الحرير حرام على الذكـور وحلال للإناث والذهب حـرام على الذكور وحـلال للإناث، أىُّ تدليل أكثـر من هذا ؟ لقـد حرَّم على الرجـال التـمتع بالحـرير والذهب وأحلَّه للنسـاء، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل، فالمفروض أن الرجل هو الذى يتحـرك حركة الحـياة خـارجاً ، وعندما يعـود لمنزله فهـو يسكن لزوجه،

والذى يصقل السيف ويحده، مثل الشجاع الذى يضرب به تماماً . كل له عمل يكمل عمل الآخر، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتَّبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾.

[النساء : ١٢٤].

وجاءت كلمتا « ذكر» و «أنثى» هنا حتى لا يفهم أحد أن مجىء الفعل بصيغة التذكير فى قوله (يعمل) أن المرأة مُعفاة منه؛ لأن المرأة فى كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً فى مسألة الرجل، وفى ذلك إيحاء بأن أمرها مبنى على الستر.

لكن الأشياء التى تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى». وجاء سبحانه هنا بلفظة «مِنْ» التى تدل على التبعيض، أى: على جزء من كلٍّ فيقول : « ومن يعمل من الصالحات» ولم يقل: « ومن يعمل الصالحات» لأنه يعلم خلقه، فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات، هناك من يحاول عمل بعض الصالحات حسب قدرته. والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه.

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه: أن المؤمن لن يعمل الفساد، هذه هى أول مرتبة، وبعد ذلك يترقى الإنسان فى الأعمال الصالحة التى تتفق مع خلافته فى الأرض، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح؛ فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من

التعب عمل صالح، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح.

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح. وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس فى باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة وكذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التى ينتفع بها الناس، وقاموا بها للطموح الكشفى، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً، لكنه غير مؤمن؛ لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التى عملوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله.

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾.

[النساء : ١٢٤]

قد يقول البعض : إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً ونجد من يقول : مـن يعمل السوء هو الذى يجب أن يتلقى العقاب ، وتَلَقِّيه العقاب أمر ليس فيه ظلم، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾.

[يونس :٢٧]

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها، وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من الله، والفضل من الله غير مقيَّد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتى فى هذا المقام قوله تعالى: **﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾**

وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهرى، وفى آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة، وفى شهر آخر لا يعطيه سوى أجره، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل. أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف ، إنه غير محدد ولا رجوع فيه. وهذا هو معنى ﴿**وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾ ، فسبحانه لا يكتفى بجزاء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جزاء الحسنة عشرة أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، ولا يتراجع عن الفضل ؛ فالتراجع فى الفضل -بالنسبة لله- هو ظلم للعبد. ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر؛ فالبشر يمكن أن يتراجعوا فى الفضل ،أما الله تعالى فلا رجوع عنده عن الفضل.

وهو سبحانه القائل :

﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾

[يونس :٥٨]

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾ والنقير هو : النقرة فى ظهر النواة، وهى أمر ضئيل للغاية. وهناك شىء آخر يسمى « الفتيل» وهو المادة التى تشبه الخيط فى بطن نواة التمر، وشىء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه « القطمير».

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى فى عطائه للمؤمنين والمؤمنات من عباده.

* * *


الزوجة
الصالحة

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾ .

[البقرة: ٢٢١].

إن الزواج هو أول شىء فى بناء الأسرة والمجتمع، وإذا لم تكن الزوجة مؤمنة، فماذا سوف يحدث؟

إن الأم هى التى تشرف على تربية الأولاد، وإذا كانت مشركة فسوف يتناسب إشرافها على أطفالها مع مستوى عقيدتها الضالة.

ومهمة الأب لن تأتى بوضوح إلا بعد مدة طويلة فى حياة الطفل تكون فيها المسائل قد غُرست فى الأبناء؛ فإياك أن تكون ذلك الرجل، وإياك أن تكونى تلك المرأة، لأن هذا يخل بنظام الأسرة، فعمل الأم مع أولادها وملازمتها لهم يؤثر فى أوليات تكوينهم، وفى قيمهم، وأخلاقهم التى تظل عالقة بهم بعد ذلك.

إن ذلك الأمر يبدأ منذ أول لحظة فى حياة الطفل أى: منذ أن يبدأ يرى ما حوله ويعى الأشياء، والطفل يقضى سنواته الأولى فى حضن أمه، وبعد ذلك يكبر، فيبدأ دور الأب، فإذا كانت الأم مشركة والأب مؤمنًا فإن الإيمان لن يلحقه إلا بعد أن يكون الشر قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه.

ونحن نعرف أن الطفولة فى الإنسان هى أطول أعمار الطفولة فى كل الكائنات، فهناك طفولة تمكث ساعتين مثل طفولة الذباب، وهناك طفولة تستغرق شهرًا، وأطول طفولة إنما تكون فى الإنسان؛ لأن هذه الطفولة

مناسبة للمهمة التى سيقوم بها الإنسان، وكل الطفولات الأخرى لها مهمة سهلة جداً، إنما الإنسان هو الذى ستأتى منه القيم، ولهذا كانت طفولته طويلة، فهى تستمر حتى مرحلة بلوغ الحُلُم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

[النور: ٥٩].

فكأن الطفل يظل طفلاً حتى يبلغ سن الحلم، فكم سنة ـ إذن- ستمر على الطفل؟.. وكم سنة سوف يتغذى هذا الطفل من ينابيع الشرك إن كانت أمه مشركة؟

إنها فترة طويلة لا يمكن له بعد ذلك أن يكون مؤمنًا غير مضطرب الملكات.. وإن صلح مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمنًا فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب، وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شكلية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس صادق.

إن الثمرات التى ينعم الناس بأكلها لا يكون نضجها إلا حين تنضج البذور التى تتكون منها أشجار جديدة، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فجة ليس لها طعم.

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على استبقاء الثمرة حتى تنضج ويصبح لها بذور.

والمرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا أنجبت مثلها ولدًا صالحاً نافعًا.. إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون النشء غير مضطرب الإيمان ولذلك يقول: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أى: إياكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة الفاسدة،وعلى كل منكم أن يأخذكم الله تعالى:

﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ لأن إعجاب الإنسان بالمرأة بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجابًا قصير العمر.

ونحن نعرف أن عمر الاستمتاع بالجمال الحسى للمرأة ـ إن جمعنا لحظاته ـ فلن يزيد مجموعه عن شهر من مجموع سنوات الزواج؛ فكل أسبوع يتم لقاء قد يستغرق دقائق وبعدها يذبل الجمال وتبقى القيم هى المتحكمة، ومن المعروف أن المرأة حين تتزوج ثم يبطىء بها الحمل، يصيبها القلق والتوتر والانزعاج وكذلك أهلها.

ولو كان الرجل قد تزوج امرأته لجمالها ووسامتها وقوامها وعينيها.. إلى آخر ذلك من مظاهر الجمال الحسى، فهذا كله سوف يهدأ ويبرد ويختفى بعد فترة، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة ،وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها؛ يغرق فى الندم، لأنها لم تكن فى باله وقت اختيار الزوجة.

ولذلك تريد المرأة أن تُمكِّن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها، وحتى يقول المجتمع لزوجها ـ عند حدوث أى خلاف -: «عليك أن تتحمل زوجتك من أجل الأولاد»..

فالرجل ـ بعد الزواج ـ يريد قيمًا أخرى غير القيم الحسية التى كانت ناشئة أولاً، ولذلك يحذرنا الله سبحانه وتعالى بقوله: **﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾** وجاء قوله سبحانه: **﴿ حتى يؤمن﴾** لأن الإسلام يجبُّ ما قبله فما دامت المرأة قد آمنت فقد انتهت المسألة.

ويقول الحق سبحانه: **﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾** أى: أن الأمة (الجارية) المسلمة خير وأفضل من الحرة المشركة **﴿ولو أعجبتكم﴾** أى: ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وحسبها وثقافتها ورشاقتها، وانتبهوا إلى دقة اللفظ القرآنى فى هذا الأمر فقد جاء قول الحق سبحانه وتعالى هنا

بمقاييس الإعجاب الحسى ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس فاسدة وزائلة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى فى نفس الآية الكريمة: ﴿ **وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا** ﴾ وهذا هو النظير فى الخطاب، وهو ليس متقابلاً فالحق سبحانه لم يخاطب المؤمنات ألا ينكحن المشركين وإنما قال: ﴿ **وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ** ﴾ وتلك دقة فى الأداء؛ لأن الرجل له الولاية فى أن يُنكح المرأة التى هو وليُّها.. فيأمره الله تعالى ألا يُزَوِّج ابنته أو أخته - أو المرأة الخاضعة لولايته - لرجل مشرك. فالشريعة الإسلامية أعطت للرجل المسلم هذا الحق فى الولاية على المرأة، كما أعطته حق القوامة على المرأة، وأوجبت عليه الإنفاق عليها والدفاع عنها ومراعاة حقوقها وحقوق أولادها - حتى لو كانت غنية - فالرجل هو المسئول عن الإنفاق على زوجته وأولاده منها وعلى جميع متطلبات المنزل والأسرة.

والقاعدة الشرعية تقول: «لا نكاح إلا بولىّ» والله سبحانه وتعالى لم يوجه الكلام هنا للنساء؛ لأن المرأة قد تتحكم فيها عاطفتها، ولكن وليها ينظر للأمر من زوايا أخرى تحكم الموقف.

صحيح أننا نستأذن الفتاة البكر عند زواجها لكى نضمن أن عاطفتها لا ترفض هذا الزواج، لكن الأب أو ولى الأمر «الرجل» يقيس المسائل بمقاييس أخرى، فلو تركنا للفتاة مقياسها لتَهَدَّم الزواج بمجرد هدوء العاطفة.

وساعة تأتى المقاييس العقلية الأخرى فلن تجد ذلك الزواج مناسبًا لها فتفشل الحياة الزوجية.

ولذلك يطالبنا الإسلام أن نستشير المرأة، كى لا نزوجها رجلاً، وهى له كارهة، فالزواج ينبغى أن يقوم على المودة والرحمة والألفة.

ولكن الذى يُزوِّجها هو أبوها أو أخـوها أو ولى أمرها؛ لأن الولى هنا له مقاييس عقلية وخُلقية واجتماعية قد لا تنظر إليها الفتاة وقد لا تنتبه إلى أهميتها فى الحياة، لأن العـاطفة قد تطغى على العقل فتحجب عنه الإطار السليم للحكم علـى الأمور، وهذا أمـر معـروف ومنتشـر بين الناس فى مجـتمعنا، فقـد تنبهر الفـتاة بشاب بسبب حـسن شكله وقوامه وجـاذبية حديثه، لكن عندما تدخل المسألة فى حركة الحياة ومشاكلها قد تجده إنسانًا غير جدير بها.

ولكى تكون المسألة مزيجًا من «**عاطفة البنت، وعقل الأب، وخبرة الأم**» كان لابد من استشارة الفـتاة، وأن يستنير الأب برأى الأم؛ ثم يقول الأب رأيه أخـيـرًا، وكل زواج يأتى بهـذا الأسلوب هو زواج ناجح ويحـالفـه التوفيق والفـلاح لأن المعايير كلها مشـتركة، ولا يوجد معيـار قد اختل؛ فالأب بنى حكمًا على أساس مـوافقة ابنته، أما إذا رفضت الفـتاة ـ حتى لو كانت معايير الأب صحـيحة ورأيه صائبًا ـ فلا يصح أن يتم الزواج فى هذه الحالة، مـا دامت الفتـاة لا تتقبل الزواج من ذلك الـرجل الذى تقدم للزواج منها، فمن حقها القبول أو الرفض، ولا يجوز لوليها إرغامها على الزواج من شخص تكرهه أو لا تريد الزواج منه.

وكثـير من الزيـجات قد فـشلت لأننا لم نجـد من يطبق منهج الله فى الدخـول إلى الزواج، وحين لا يطبق البـعض منهج الله فى الدخـول إلى الزواج ثم يفشل الزواج.. هنا فقط يصرخـون ويطلبون من قواعد الإسلام أن تنقذهم.

نقـول لهؤلاء: وهل دخلتم إلى مـسـألة الزواج على دين الله؟! إنكم ما دمـتم قد دخلتم إلى الـزواج بأفكاركم البعـيـدة عن منهج الله فيـجب عليكم أن تحلوا المشـاكل التى قد تحـدث ـ بأفكاركم وعقـولكم فأنتـم قد

احتكمتم إلى غير دين الله من البداية، فلا تطلبوا منه أن ينقذكم فى النهاية، فالدين ليس مسئولاً إلا عمن يدخل إلى الأمور بمقاييس الدين ومقاييس منهج رب العالمين الذى شرعه للناس أجمعين.

لكن أن تدخل إلى مسألة الزواج بغير مقاييس الله ثم تريد من الله تعالى أو من القائمين على أمر الدين أن يحلوا لك المشاكل؛ فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الدين.

ولو كانت هذه المشكلات لم تحدث لكنا قد اتهمنا منهج الله وقلنا: «قد تركنا منهج الله وسعدنا فى حياتنا»..

ولذلك كان لابد أن تقع هذه المشكلات.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾ هذه قضية لها سبب، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها، لقد كان السبب فيها هو ما رُوِىَ أنه كان هناك صحابى اسمه مرثد بن أبى مرثد الغنوى بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأة فى الجاهلية اسمها «عناق» وكانت تحبه، وساعة رأته أرادت أن تخلو به فقال لها: ويحك إن الإسلام قد حال بيننا، فقالت له: تزوجنى، فقال لها: أتزوجك لكن بعد أن أستأمر وأستأذن النبىَّ ﷺ، فلما استأمره نزل قول الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ .

وقيل إن قوله تعالى: ﴿ **وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ نزل فى خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت فى الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله ذكرك فى كتابه، فأعتقها حذيفة وتزوجها.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾. إن المقاييس واحدة فى اختيار شريك الحياة، إنها الرغبة فى بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير، وغاية كل شيء هى التى تحدد قيمته، وليست الوسيلة هى التى تحدد قيمة الشيء، فقد تسير فى سبيل وطريق خطر وغايته فيها خير، وقد تسير فى سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر، ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ . والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك. أما الله تعالى فهو يدعو إلى الجنة، والمغفرة تأتى بإذن الله أى: بتيسير الله وتوفيقه، ونعرف جميعًا الحكمة التى قالها الإمام «على» كرم الله وجهه: لا خير فى خير بعده النار، ولا شر فى شر بعده الجنة.

وقوله سبحانه: ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يأتى كثيرًا، هذا التذكر ماذا يفعل؟ إن التذكر يُشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هى التى طرأت، لكن الغفلة إذا تنبهت إليها، فهى تذكرك ما كنت قد نسيته من قبل، لكن إن طالت الغفلة، ونسى الأصل فهذه هى الطامة، التى تنطمس بها المسألة.

إذن: فالتذكر يشمل مرحلتين

المرحلة الأولى: أن تعرف إن لم تكن تعرف، أو تعلم إن كنت تجهل.

والمرحلة الثانية: هى أن تتذكر إن كنت ناسيًا، أو توائم بين ما تعلم وبين ما تعمل؛ فالتذكر يوحى لك بأن توائم ما بين معرفتك وسلوكك حتى لا تقع فى الجهل، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة، لقد أراد الله سبحانه أن يصون الإنسان الذى اختار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لمن جعله خليفة فى الأرض

عقيدة واحدة يصدر عنها السلوك الإنسانى؛ لأن العقائد إن توزعت حسب الأهواء فسيتوزع السلوك حسب الأهواء. وحين يتوزع السلوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند.

فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها؛ فشرط فى بناء اللبنة الأولى للأسرة ألاّ ينكح مؤمن مشركة؛ لأن المشركة فى مثل هذه الحالة ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة هى ـ كما قلنا ـ أطول أعمار الطفولة فى الكائن الحى. ولو كان الأب مؤمنًا والأم مشركة فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة فتتأصل عن طريق الأم معظم القيم التى تتناقض مع الإيمان.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أيضاً ألا تتزوج المؤمنة مشركًا؛ لأنها بحكم زواجها من مشرك ستنتقل إليه وإلى بيئته المشركة وإلى أسرته، وسينشأ طفلها الوليد فى بيئة شركية فتتأصل فيه الأشياء القيمية التى تناقض الإيمان. ويريد الحق سبحانه وتعالى بهذه الصيانة، أى: بعدم زواج المؤمن من مشركة، وبعدم زواج المؤمنة من مشرك، أن يحمى الحاضن الأول للطفولة. وحين يحمى الحاضن الأول للطفولة يكون الينبوع الأول الذى يصدر عنه تربية عقيدة الطفل ينبوعاً واحدًا، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة. لذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾ .

[البقرة: ٢٢١].

كل ذلك حتى يصون الحق سبحانه البيئة التى ينشأ فيها الوليد الجديد،

وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى رَخَّصَ للمؤمنين فى أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾.

[المائدة: ٥].

وقد وقف العلماء من مسألة ترخيص الحق للمؤمنين فى أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين:

الموقف الأول: هو موقف مانع؛ لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد ينحرفون فى معتقداتهم إلى ما يجعلهم فى الشرك، وقالوا: وهل هناك شرك أكثر من أن تُدَّعى الربوبية لبشر؟.

والموقف الثانى: أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كتابية ويجب عليه أن يسألها أهى تدين بألوهية أحد من البشر أم تدين بالله الواحد القهار؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف فى الرسول فالأمر يهون، أما إن كانت تؤمن بألوهية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت فى الشرك وعلى المؤمن أن يحتاط.

وإذا كان للرجل الولاية وله أن يتزوج بكتابية فهو غالبًا ما ينقلها إلى بيئته هو وستكون البيئة المؤثرة واحدة، ووجود الولاية للأب مع الوجود فى البيئة الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها، وإن كان على الإنسان أن يتيقظ إلى أنّ هناك مسالك تتلطف وتتسلل ناحية الشرك، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك، وأن يتزوج ويعصم ويعفّ فتاة مسلمة.

وحين يحمى الحق سبحانه وتعالى الحاضنة الأولى للطفل فهو يريد أن يربى فى الطفل عدم التوزع، وعدم التمزق، وعدم التنافر بين ملكاته، وحين نضمن للطفل الوجود والنشأة فى بيئة متآلفة فهو ينشأ طفلاً سوياً، والإسلام يريد أن يحافظ على سويَّة هذا الطفل، ويقول بعض الناس: ولماذا لا نوجد محاضن جماعية؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الإشكال.

نقول لهم: إن الإشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبلنا، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب «أطفال بلا أسر» فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة. ولماذا نذهب بعيدًا؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال فى إسرائيل فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون فى بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللا إرادى ينتشر بينهم حتى سن الشباب.

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه فى أمه أحد، حتى وإن كان أخًا له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم؟ ولا يغنى عن حنان الأم حنانُ مائة مربية؛ فليس للمربيات جميعاً قلب الأم التى ولدت الطفل، فالحنان الذى تعطيه الأم ليس حنانًا شكلياً ولا وظيفياً، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطى العطاء الصحيح، لذلك لابد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التى ولدته له وحده، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخًا له، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وآباء أمثاله من الأطفال فيجب بعد ذلك أن يُنسب إلى أب له كيان معروف فى المجتمع الخارجى.

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أماً لا يشاركه فيها أحد،

وأنّ له أبًا لا يشاركه فيه أحد، وإن شاركه فيهما أحدٌ فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعاً حنان الأم ورعاية الأب، لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج أساسي للتربية لمدة عامين وبضعة من الشهور، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الآن؛ القول الحكيم الصادق بيَّن هذه الحقيقة واضحة في أجلى صورها:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ .

[الأحقاف: ١٥].

إن الأم هي الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق سبحانه، إذن: فالحق تبارك وتعالى يريد أن يحمي اللبنة الأولى في تكوين المجتمع وهي الأسرة في البناء العَقَدي من أن تتأثر بالشرك، ويريد أن يحفظ للأسرة كيانًا سليمًا.

ويعالج الحق سبحانه بعد ذلك قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتي التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفي الجو الاجتماعي تياران:

تيار يرى أن الحائض هي امرأة تعاني من قذارة، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها في بيت واحد وكذلك أبناؤه.

وتيار آخر يرى المرأة في فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أي: تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط

أو تحفظ، كان الحال ـ إذن ـ متأرجحاً بين الإفراط والتفريط، فجاء الإسلام ليضع حدًا لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ .

[البقرة: ٢٢٢].

حين تقرأ «هو أذى» فقد أخذت الحكم ممن يُؤْمَنُ على الأحكام، ولا تناقش المسألة، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نَقُلْ له: لا، الذى خلق قال: «هو أذى». والمحيض يطلق على الدم، ويراد به ـ أيضاً ـ مكان الحيض، ويراد به زمان الحيض.

وقول الحق سبحانه عن المحيض إنه أذى يهيِّىء الذهن لأن يتلقى حكماً فى هذا الأذى، وبذلك يستعد الذهن للحظر الذى سيأتى به الحكم، وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته.

إن الحق سبحانه وتعالى- وهو الخالق- أراد أن تكون عملية الحيض فى المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض؛ لأن المحيض أذى لهم، لكن هل دم الحيض أذى للرجال أم للنساء؟ إنه أذى للرجال والنساء معاً؛ لأن الآية أطلقت الأذى، ولم تحدد من المقصود به.

والذى يدل على ذلك أن الحيض يعطى قذارة للرجل فى مكان حساس هو موضع الإنزال عنده، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة.

والذى يحدث أن الحق سبحانه قد خلق رحم المرأة وفى مبيضها عدد محدد معروف له وحده - سبحانه وتعالى - من البويضات، وعندما يفرز

أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التى كانت تثبت بطانة الرحم، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض.

والحيض هو دم يحتوى على أنسجة غير حية، وتصبح منطقة المهبل والرحم فى حالة تهيج، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جداً لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة، أم للرجل إنْ جامع زوجته فى فترة الحيض، والحيض يصيب المرأة بأذى فى قوتها وجسدها؛ بدليل أن الله سبحانه رَخَّصَ لها ألاّ تصوم وألاّ تصلى فى هذه الحالة.

إذن: فالمسألة منهكة ومتعبة لها، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هى عليه.

إذن: فقوله تعالى: «هو أذى» تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة، وبعد ذلك بيّن الحق الأعلى سبحانه أن كلمة «أذى» حيثية تتطلب حكماً يأتى، إما بالإباحة وإما بالحظر، وما دام هو أذى فلابد أن يكون حظرًا.

يقول الحق عز وجل: ﴿ **فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ** ﴾ والذى يقول: إنّ المحيض هو مكان الحيض يبنى قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية، لكن ما فوق السرة وما فوق الملابس فهو مباح، فقول الحق سبحانه: « **وَلا تَقْرَبُوهُنَّ** » أى: لا تأتوهن فى المكان الذى يأتى منه الأذى وهو دم الحيض. ﴿ **حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**﴾. و« **يَطْهُرْنَ**»: من الطّهور، مصدر طَهَرَ يطهر، وعندما نتأمل قوله: ﴿ **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ**﴾ نجد أنه لم يقل: «فإذا طهرن»، فما الفرق بين «طهر» و «تطهر»؟

إنّ كلمة «يطهرن» معناها: امتنع عنهن الحيض، و«تطهرن» يعنى:

اغتسلن من الحيض؛ ولذلك نشأ خلاف بين العلماء، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكــن أن يباشر الرجل زوجــته، أم لابد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال؟.

وخروجــاً من الخــلاف نقول: إن قــول الحق تعالى: «تطهــرن» يعنى: اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال، ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر فى استنباط الحكم، ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ .

[الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

مــا المقصــود إذن؟ هل المقصــود أن القــرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث، أو أن للبشر أيــضاً حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهــرون؟ بعض العلمــاء قــال: إن المسألــة لابد أن ندخلهــا فى عمــوم الطهارة، فــيكون معنى ﴿ **إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ أى: الذين طهــرهم مَن شرع لهم التطهيــر؛ ولذلك فالمسلم حين يغتــسل أو يتوضأ يكون قــد حدث له أمران: التطهر ،والطهر.

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، والطهر بتشريع الله، فكما أن الله تعالى طهــر الملائكة أصلاً فقد طهــرنا معشر الإنس تشــريعاً، وبذلك نفهــم الآية على إطلاقهــا ونرفع الخلاف، وقــول الحق سبــحانه :﴿**حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ**﴾ أى: حتى يأذن الله لهن بالطهر، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر ﴿**فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**﴾ يعنى :فى الأماكن الحلال.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنساً، فكــما أنه طلب منك أن تتطهر مــادياً فهو سبــحانه قبل أيضًا منك أن تتطهر معنوياً بالتوبة، لذلك جاء بالأمر حسياً ومعنوياً،

وبعـد ذلك جاء الحق سـبحـانه وتعـالى بحكم جـديد، هذا الحكم ينهى إشكالاً أثاره اليهود.

وقد كـان اليـهود يشـيرون أن الرجل إذا أتى امـرأته من خلف ولو فى قُبلها- بضم الـقاف - جاء الولد أحول. و«القُبل» هو مكان الإتيان، وليس معناه الإتيـان فى الدبر والعياذ بالله كما كـان يفعل قوم لوط. ولّما كان هذا الإشكال الذى أثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق تعالى أن يرد على هذه المسألة فقال:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

[البقرة: ٢٢٣].

إن الحق سبـحانه وتعالى يفـسح المجال للتمـتع للرجل والمرأة على أى وجه من الأوجه شريطة أن يتم الإتيـان فى محل الإنبات، وقد جاء الحق بكلمـة «حرث» هـنا ليبـيِّن أن الحـرث يكون فى مكان الإنبـات. «فـأتوا حرثكم» وما هو الحرث؟ الحرث مكان استنبات النبات، وقد قال تعالى:

﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾.

[البقرة: ٢٠٥].

فـأتوا المرأة فى مكان الزرع، زرع الولد، أمـا المكان الذى لا ينبت منه الولد فلا تقربوه، وبعض الناس فهـموا خطأ أن قوله: «فأتوا حرثكم أنَّى شئتم» معناها: إتيان المرأة فى أى مـكان، وذلك خطأ؛ لأن قوله سبحانه: «نساؤكم حرث لكم» يعنى: محل استـنبات الزرع، والزرع بالنسبة للمرأة والرجل هو الولد، فَأْتها فى المكان الذى ينجب الولد على أى جهة شئت.

ويقول الحق سـبحانه: «وقَدِّمـوا لأنفسكم» أى: إياك أن تأخـذ المسألة

على أنها استمتاع جنسى فحسب، إنما يريد الحق سبحانه وتعالى- بهذه اللذة الجنسية - أن يحمى متاعب ما ينشأ من هذه اللذة؛ لأن الذرية التى ستأتى من أثر اللقاء الجنسى سيكون لها متاعب وتكاليف، فلو لم يربطها الله سبحانه وتعالى بهذه اللذة لزهد الناس فى الجماع.

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بين كدح الآباء وشقائهم فى تربية أولادهم بلذة الشهوة الجنسية حتى يضمن بقاء النوع الإنسانى، ومع هذا يحذرنا الحق سبحانه أن نعتبر هذه اللذة الجنسية هى الأصل فى إتيان النساء فقال: «وقدموا لأنفسكم»، يعنى: انظروا جيداً إلى هذه المسألة على ألا تكون هى الغاية، بل هى وسيلة، فلا تقلبوا الوسيلة إلى الغاية، «وقدموا لأنفسكم» أى: ادخروا لأنفسكم شيئاً ينفعكم فى الأيام المقبلة.

إذن: فالأصل فى العملية الجنسية الإنجاب. «وقدموا لأنفسكم» أى:

لا تأخذوا المتاع اللحظى العاجل على أنه هو الغاية، بل خذوه لما هو آت. وكيف نقدم لأنفسنا؟ أو ماذا نفعل حتى لا نشقى بمن يأتى؟ عليك أن تتبين بهذه العملية فقدم لنفسك شيئاً يريحك، وافعل ما علمنا رسول الله ﷺ.. ساعة تأتى لهذه النعمة وتقترب من زوجتك لابد أن تسمى الله وتقول: **«اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى»**، وعندما يأتى المسلم أهله وينشأ وليده فلن يكون للشيطان عليه دخل. وقال بعض العلماء: لا يمكن أن يؤثر فيه سحر، لماذا كل ذلك؟

لأنك ساعة استنبتَّه أى: زرعته، ذكرتَ المُنْبِتَ وهو الله عز وجل، وما دمت ذكرت المنبت الخلاّق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية، وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل الذى ينسى والده الدعاء إلى الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة للشياطين.

«وقدموا لأنفسكم» أى: قدموا لها ما يريحكم وما يطيل أمد حياتكم

وأعمـالكم فى الحيـاة؛ لأنك عندما تقـبل على المسألة بنيـة إنجاب الولد، وتذكـر الله وتستـعيذ مـن الشيطان فـينعم عليك الخالق سـبحـانه بالولد الصالح، هذا الولد يدعو لك، ويعلِّم أولاده أن يدعوا لك، وأولاد أولاده يدعون لك، وتظل المسألة مسلسلة فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التقديم.

وهَبْ أنك رُزقت المولود ثم مات ففجعت به واسترجعت واحتسبته عند ربك، إنك تكون قـد قدمتـه، ليغلق عليك باباً من أبـواب النيران، إذن: فكل أمر لابد أن تذكر فيه «وقدموا لأنفسكم».

ويقول الحق سـبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مـعنى «اتقـوا الله» أى: إياكم أن تغـضـبـوا ربكم فى أى عـمل من هذه الأعمال، وكن أيها المسلم فى هذه الـتقوى على يقين من أنك ملاقى الله سبـحانـه وتعالى، ولا تشك فى هذا اللقـاء أبدًا، وما دمت سـتتـقى الله وتكون على يقين أنك تلاقـيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بـالجنة، وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

[البقرة: ٢٢٤].

وفى الآية ثلاثة أشياء:

أولاً: أن تبروا، أى: أن تـفعلوا البر، والـبر قد يكرهه الإنـسان لأنه شاق على النفس.

ثانياً: أن تتقوا، أى: أن تتجنبوا المعاصـى، والتقوى تكون أيضاً شاقة فى بعض الأحيان.

ثالثاً: أن تصلحوا بين الناس، أى: أن تصلحوا ذات البيْن وقد يكون فى الإصلاح بين الناس مئونة وذلك بعد أن **تمتنعوا** أن تجعلوا الله عُرضة للقسم.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ** ﴾ فالعرضة هى الحجاب، وهى ما يعترض بين شيئين، «**وعرضة**» هى - أيضاً - الأمر الصالح لكل شىء، فيقال: «فلان عرضة لكل المهمات» أى: صالح لها. والعرضة - كما عرفنا - هى ما اعترض بين شيئين، كأن يضع الإنسان يده على عينيه فلا يرى الضوء، هنا تكون اليد «عُرضة» بين عينى الإنسان والشمس، إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء.

كأن الحق سبحانه يقول: «أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى». فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول: «أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان» إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعًا بينك وبين البر.

ويريد الحق سبحانه بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز فى منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بين الناس.. ومن حلف على شىء فرأى غيره خيراً منه فليفعل الخير وليكفِّرْ عن يمينه، لماذا؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيرًا فهو يضع الله مانعًا بينه وبين الخير، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله، إن الله تعالى هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس، لذلك فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ** ﴾ أى: أن الحق سبحانه يريد أن يحمى عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل الخير فالحق سبحانه يريد لك أن تحنث فى هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى

لا تتناقض مع تشريع الله، ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع فيه كل فرد البر، واتقى فيه كل إنسان المعاصى، ورأى فيه كل إنسان نزاعًا بين جماعتين فأصلح هذا النزاع، أليس هذا دخولاً فى السلم كافة، إذن: فالحق سبحانه يريد أن يستبقى للناس ينابيع الخير وألا يسدّوها أمام أنفسهم.

إن الحق تعالى هو الآمر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعًا بين الإنسان والبر، أو بين الإنسان والتقوى، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس، ويتساهل الإسلام فى مسألة التراجع والحنث فى البر فيقول السلف الصالح: «لا حنث خير من البر». إذن: فالمجتمع الذى فيه صنع البر، وتقوى المعاصى، والصلح بين المتخاصمين يدخل فى إطار:

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ .

[البقرة : ٢٠٨].

والإنسان قد يتعلل بأى سبب حتى يبتعد عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس، بل يعمل شيئًا يريحه ويخلع عليه أنه ممتثل لأمر الله، ولنضرب لذلك مثلاً : سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بعد أن جاء مسطح بن أثاثة واشترك مع من خاضوا فى الإفك الذى اتهموا فيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها.

وخلاصة الأمر أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ زوجة رسول الله ﷺ، كانت قد خرجت مع الرسول الكريم ﷺ فى غزوة «بنى المصطلق» وكان الأمر بالحجاب قد نزل، لذلك خرجت عائشة رضى الله عنها فى هودج.

وقام الرسول ﷺ بغزوته وحان وقت العودة، وفقدت عائشة عقدًا لها، وكانت ـ رضى الله عنها ـ خفيفة الوزن؛ لأن الطعام فى تلك الأيام كان قليلاً، راحت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تبحث عن عقدها المفقود، وعندما

حملوا هودج عائشة ـ رضى الله عنها ـ لم يفطنوا أن عائشة ليست فيه، ووجدت عائشة عقدها المفقود، وكان جيش رسول الله قد ابتعد عنها، وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعوا إليها، وكان خلف الجيش صفوان بن المعطل السلمى وعرفته عائشة وأناخ راحلته وعادت عائشة إلى المدينة، ودار حديث الإفك بوساطة عبد الله بن أُبَىٍّ بن سلول رأس النفاق.

وكان الغم والحزن يصيبان السيدة عائشة طوال مدة كبيرة وبيّن الحق كذب هذا الحديث. وذاع ما ذاع عن أم المؤمنين عائشة وهى زوجة رسول الله ﷺ قبل أن تكون بنت أبى بكر، وأبو بكر صديق رسول الله ﷺ ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبى بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثة واشترك فى حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبرئ الله سبحانه وتعالى عائشة وينزل القول الكريم الذى يثبت براءة أم المؤمنين فى حديث الإفك، وحين يبرئها الله سبحانه يأتى أبو بكر وكان ينفق على مسطح فيقطع عنه النفقة ويقول: «والله لا أنفق عليه أبدًا» لماذا؟ لأنه اشترك فى حديث الإفك، والمسألة فى ظاهرها ورع.

لذلك سيمتنع عن النفقة على مسطح بن أثاثة لأن مسطحًا خاض فى الإفك، لكن انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والفضائل عند الله سبحانه فقد بيّن الحق تبارك وتعالى أن هذا طريق، وذاك طريق آخر، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾.

[النور: ٢٢].

فإذا كنت تحب أن يغفر الله لك، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة؟

وما دمت تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم، قالها الحق عز وجل لأبى بكر؛ لأنه وقف موقفًا من رجل خاض فى الإفك مع من خاض ومع ذلك يبلغه أن ذلك لا يصح.

وقوله تعالى: **﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا﴾** لا تقل: إنى حلفت بالله على ألاّ أفعل ذلك الخير، لا. افـعلْه فالله سبحانه يرضى لك أن تحنث وتكفِّر عن يمينك.

﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. إن الله عز وجل يبلغنا: أنـا لا أريد أن تجعلوا الحلف بى عُرضة، يعنى: حاجزًا أو مانعًا عن فعل الخير، مثلاً لو طُلب منك أن تبر شخصًا أساء إليك فـلا تقل: حلفت ألا أبرّ به لأنه لا يستحق، عندها تكون قد جعلت اليمين بالله مانعًا للبر. وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك: لا، أنا متجـاوز عن اليمين بى؛ إن حلفت ألا تبر أو لا تتقى أو لا تصل رحمًا أو لا تصلح بين اثنين، أنا تسامحت فى اليمين.

والحديث: يقول: **«مَنْ حلف على يمين فرأى غـيرها خيراً منهـا فليأت الذى هو خيـر وليكفِّرْ عن يمينه»** وهكذا يحمى الحق سبـحانه وتعالى فعل البر ويحمى التـقوى ويحمى عمليات الإصـلاح بين الناس، ولو كنت قد حلفت بالله ألا تفعلـها، لماذا؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفـعل، وتجعل الله سبحانه وتعالى هو المانع، فقد نـاقضت التشريع نفسه؛ لأن الله تعالى هو الآمر بالبر والإصلاح والتـقوى، فلا تجعل يمين البشر مـانعاً من تنفيذ منهج رب البشر.

﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع فى اليـمين، احنثْ فيـه وكفِّرْ عنه، والحكم نفـسه يسـرى على الذى يمنع ممتلكـاته كالدابة أو الماكـينة أو

السيارة من انتفاع الناس بها بحجة أنه حلف ألا يعيرها لأحد، وذلك أمر يحدث كثيرًا فى الأرياف.

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم: «والله سميع عليم». إنه سبحانه سميع باليمين الذى حلفته، وعليم بنيتك إن كانت خيراً أم شراً فلا تتخذ اليمين حجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح. والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطينا أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقاً أم لغو، ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذى عُقد القلب عليه، أى: الذى يقصد صاحبه ألا يحنث فيه، أما لغو اليمين فقد تجاوز الله عنه.

مثلاً: الأيمان الدارجة على ألسنة الناس كقولهم: «والله لو لم تفعل كذا لفعلت معك كذا»، «والله سأزورك»، «والله ما كان قصدى» أو الحلف بناءً على الظن؛ كأن تحلف بقولك: «والله حدث هذا» وأنت غير متأكد من تمام حدوثه، لكن ليس فى مقصدك الكذب.

أما اليمين الغموس فهى الحلف والقسم الذى تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف، كأن تكون قد شاهدت واحدًا يسرق أو يقتل وتحلف بالله أنه لم يسرق أو لم يقتل، من أجل ذلك كله يحسم الله سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

[البقرة: ٢٢٥].

وكان من المناسب أن تأتى هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه بيَّن لنا اليمين التى لا تقع وكأنه قال لنا: ارجعوا فيها واحنثوا وسأقبل رجوعكم فى مقابل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا، فإذا كان قد قبل تراجعنا

عن هذا اليـمين فلأن له مقـابلاً فى فعل الخـير، وقـول الحق سبـحانه: «بما كسبت قلوبكم» هو المعنى نفسه لقوله تعالى:

﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ .

[المائدة: ٨٩].

أى: الشىء المعقود فـى النفس والذى رسخ داخل نفسك، لكن الشىء الذى يمر على اللسـان فلا يؤاخـذنا الله به. «لا يؤاخـذكم الله باللغـو فى أيمانكم» والأيمان جمع يمين، واليمين: هو الحلف أو القسم، وسمى يميناً؛ لأنهم كـانوا قـديمًا إذا تحـالفـوا ضـرب كل امرِ ئٍ منهم يميـنه على يمين صاحبه، وذلك لأن اليمين هى الجارحة الفاعلة.

وبالمناسـبـة، فـالجارحـة الفـاعلة إياك أن تظن أنهـا تفـعل بالرياضـة والتدريب، وإنما هى تفعل بالخلق أى: كما خلقـها الله، فهى مجبرة على الفعل حسب خلقتها.

ولذلك عندمـا تجد إنسـاناً ويده اليـمنى لا تعمل ويزاول أعـماله بيـده اليـسرى فـلا تحاول أن تجـعله يسـتخـدم اليـمنى بدلاً من اليسـرى؛ لأن محاولتك عـبث لن يجدى؛ لأن السبب فى أنه يستخـدم اليسرى بدلاً من اليمنى سبب خلقى، فالجهاز الخاص بالتحكم فى الحركة فى المخ هو الذى يقرُّ هذا الأمر.

لذلك تجد الذى يكتب بـيده اليسرى يـتقن الكتابة بهـا أفضل من الذى يكتب باليمنى فى بعض الأحيـان، ومن هنا نقول: إنه من الخطأ أن تحاول تغيير سلوك الذى يعمل بيـده اليسرى بدلاً من اليمنى؛ لأن ذلك عبث لن يصل لنتيجة.

وأحيـاناً تجد الجـهاز المتحكم فى حـركة اليـدين موجوداً فـى منتصف ووسط المخ فيرسل حركات متوازنة لليد اليمنى واليد اليسرى معاً، ولذلك

تجد شخصاً يكتب بيديه اليمنى واليسرى معاً بالسرعة نفسها وبالإتقان نفسه، ويؤدى بهما الأعمال بتلقائية عادية، ولله فى خلقه شئون، فهو يعطينا الدليل على أنه لا تحكمه قواعد، فهو سبحانه قادر على أن يجعل اليد اليمنى تعمل، وقادر على أن يجعل اليد اليسرى تعمل، أو يجعلهما يعملان معاً بالقوة نفسها، أو يجعل كلتا اليدين غير قابلتين للعمل، إنها ليست عملية آلية خارجة عن إرادة الله، بل كل شىء خاضع لإرادته سبحانه.

«لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» المقصود به الحلف، والحلف من معانيه التقوية، وهى مأخوذة من الحِلْف، وهو أن يتحالف الناس على عمل ما، ونحن عندما نتحالف على عمل فنحن نقسِّم العمل بيننا، وعندما نفعل ذلك يسهل علينا جميعاً أن نفعله.

«لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» والكسب عملية إرادية، لأنك ساعة تقسم بالله دون أن تقصد فهو لا يؤاخذك، وهذا دليل على أن الله سبحانه واسع حليم.





زينة الحياة الدنيا

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾.

[آل عمران: ١٤].

الموضع الذى تأتى فيه هذه الآية الكريمة هو: موضع ذكر المعركة الإسلامية التى جعلها الله آية مستمرة دائمة؛ لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع.

والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحِّى بكثير من ماله فى تسليح نفسه، وتسليح غيره أيضاً.

فمن يقعد عن الجهاد فى سبيل الله إنسان تغلبه شهوات الدنيا، فيأتى الحق سبحانه بهذه الآية بعد ذكر الآية التى ترسم طريق الانتصارات المتجددة لأهل الإيمان؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال فى سبيل الله ولإعلاء كلمته يقول سبحانه : «زين للناس حب الشهوات» وكلمة «زين» تعطينا فاصلاً بين المتعة التى يُحلّها الله، والمتعة التى لا يرضاها الله؛ لأن الزينة عادة هى شىء فوق الجوهر، فالمرأة تكون جميلة فى ذاتها وبعد ذلك تتزين، فتكون زينتها شيئاً فوق جوهر جمالها.

فكأن الله سبحانه يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها، ولكن لا نأخذها بزينتها وبهرجتها، بل نأخذها بحقيقتها الاستبقائية فيقول: «زين للناس حب الشهوات من النساء»، وما الشهوة؟ الشهوة: هى ميل النفس بقوة إلى أى عمل ما.

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجدها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد

حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو الممقوت.

إن أعنف غرائز الإنسان هى غريزة الجنس. والحيوان يَفْضُل الإنسان فيها، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن أنثى الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمكِّن فحلاً آخر منها، والفحل أيضاً إذا ما جاء إلى أنثى وهى حامل فهو لا يُقبل عليها، إذن: فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة، ولم تأخذها كالإنسان لذة متجددة.

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات، ونقول فى صفة شهوة الإنسان: إن عند فلان شهوة بهيمية، ويا ليتها كانت شهوة بهيمية بالفعل؛ لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضرورى، لكن نحن فلسفناها، إذن: فخروجك بالشىء عما يمكن أن يكون مباحًا ومشروعاً يسمى دناءة شهوة النفس.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه، والبقاء له نوعان: أن تبقى حياة الإنسان بالمطعم والمشرب، وتبقى حياة النوع الإنسانى بالتزواج.

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخلاَّق حكيماً عليماً، إنه يعلم أن طفولة أى حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه، ومثال ذلك: الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران، ثم لا تعرف أين- بعد ذلك - ذهب فرخها، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة، والتى أراد الله سبحانه لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شقاء حتى يبلغ الولد، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة، وما يتحمل من مشاق ومتاعب فى سبيل الاستمتاع بها واستبقائها، فقول الحق سبحانه: «زين للناس حب الشهوات من النساء» فمن المزين؟ إن كان فى الأمر

الزائد على ضروريات الأمر، فهذا مـن شغل الشيطان، وإن كان فى الأمر الرتيب الذى يضمن استبقاء النوع فهذا من الله سبحانه وتعالى.

ونجد الحق سبحانه وتعالى يضيف «الـبنين» إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران، ولم يقل : البنات، لماذا؟ لأن الـبنين هم الذين يُطلبون دائماً للعزوة - كما يقولون - ولا يأتى منـهم العار، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العـار، والمحبوب لدى الرجل فى الإنجاب حـتى الآن هو إنجاب البنين، حتى الذين يقولون بحقـوق المرأة وينادون بها، سواء أكان رجلاً أم امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه - أو إنها - تريد ولدًا ذكرًا.

ولكى يبيِّن الحق سبحانه وتعالى آداب العلاقة بين الزوج والزوجة يقول فى كتابه العزيز :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ .

[البقرة : ١٨٧].

يبيِّن لنا الحق سبـحانه هنا آداب التعامل بين الزوجين فـى أثناء الصيام، ويأتى هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة فى القرآن لنفهم منه أن الدين وحـدة متكاتفـة تُخاطب كـل الملكات الإنسانيـة، ولا يريد الحق سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبداً.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ وساعة تسمع «أحل لكم» فكأن مـا يأتى بالتحليل كـان مُحرَّمًا من قـبل،

والذى أحله الله فى هذا القول كان محرماً فى الصيام، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج، فكأن قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء فى أيام الصيام - نهاراً وليلاً - حرامًا، فقد كان الصيام فى بدايته إمساكاً عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب، ولا اقتراب بين الزوجين فى الليل أو النهار، فكان الرفث فى ليلة الصيام محرمًا، وكان يحرم عليهم الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا.

وجاء رجل وقال لرسول الله ﷺ: ذهبت فلم أجد أهلى قد أعدوا لى طعاماً، فنمت، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أنى لا أقدر أن آكل ولذلك فأنا أعانى من التعب، فأحل الله مسألتين:

المسألة الأولى هى: الرفث إلى النساء فى الليل.

والمسألة الثانية قول الحق سبحانه: «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» أى: كلوا واشربوا إلى الفجر حتى ولو حصل منكم نوم، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى التى جاءت للمسافر أو المريض، كانت الرخصة الأولى بخصوص مشقة الصوم على المسافر أو المريض، أما الرخصة الجديدة فهى عامة لكل مسلم وهى تعميق لمفهوم الحكم.

وقد ترك الحق سبحانه هذا الترخيص مؤجلاً بعض الشىء لكى يدرك كل مسلم مدى التخفيف، لأنه قد سبق له أن تعرض إلى زلة المخالفة، ورفعها الله عنه، وانظر للآية القرآنية وهى تقول: ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ** ﴾.

كلمة «تختانون أنفسكم» هذه تعلمنا أن الإنسان لم يقو على الصوم كل

الوقت عن شهوة الفرج، فعندما تركك تختان نفسك، ثم أنزل لك الترخيص، هنا تشعر بفضل الله عليك.

إذن: فبعض الرخص التى يرخص الله سبحانه لعباده فى التكاليف: رخصة تأتى مع التشريع، ورخصة تخفيفية تأتى بعد أن يجىء التشريع، لينبه الحق سبحانه أنه لو لم يفعل ذلك لتعرَّضتم للخيانة والحرج .

وانظر الشجاعة فى أن عمر - رضى الله عنه - يذهب إلى النبى ﷺ ويقول له: «أنا يا رسول الله ذهبت كما يذهب الشاب»، والذى جاع أيضاً يقول للرسول ﷺ: إنه جاع، وجاء التشريع ليناسب كل المواقف، فنمسك نهارًا عن شهوتى البطن والفرج، وليلاً أحل الله لنا شهوتى البطن والفرج، وهذا التخفيف إنما جاء بعد وقوع الاختيان ليدلنا على رحمة الله فى أنه قَدَّر ظرف الإنسان، «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم»، و« الرفث» هو الاستمتاع بالمرأة، سواء أكان مقدمات أو جماعًا.. «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن».

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا عملية التحام الرجل والمرأة بكلمة الله، و«اللباس» هو الذى يوضع على الجسم للستر، فكأن المرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة، واللباس أول مدلولاته ستر العورة، فكأن الرجل لباس للمرأة أى: يستر عورتها، والمرأة تستر عورته، فكأنها عملية تبادلية، فهذا يحدث فى الواقع فهما يلتفان فى ثوب واحد، ولذلك يقول: «باشروهن» أى: هات البشرة على البشرة.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن المرأة لباس ساتر للرجل، والرجل لباس ساتر للمرأة، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يظل هذا اللباس سترًا بحيث لا يفضح شيئاً من الزوجين عند الآخرين، ولذلك فالنبى ﷺ يحذرنا أن يحدث بين الرجل وأهله شىء بالليل وبعد ذلك

تحكيه المرأة نهـاراً، أو يحكيه الرجل، فهذا الشىء محكوم بقضـية الستر المتبادل.

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ وما دام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، فـيكون من رحمـة الله بالإنسان - وقـد ضَمَّ الرجلَ والمرأة لـباس واحد- وبعد ذلك نطلب منهما أن يمتنعا عن التواصل.

إذن: فقوله تعالى: «تخـتانون أنفسكم» مسألة حتمية طـبيعية، ولذلك قال الحق تعالى بعدها: «فتاب عليكم» ومعنى «تاب عليكم» هو إخبار من الله بأنه تاب، وحين يخبر الله بأنه تـاب، أى: شرع لهم التوبة، والتوبة- كما نعرف- تأتى على ثلاث مراحل:

يشرع الله التوبة أولاً.

ثم تتوب أنت ثانياً.

ثم يقبل الله التوبة ثالثًا.

«وعفـا عنكم» لأنه ما دام قـد جعل هذه العمليـة لحكمة إبراز سـمو التشـريع الإسلامى فى التـخفيـف، فيكون القصـد أن تقع هنا وأن يكون العفو منه سبحانه .

ويقول الحق تبارك وتعالى: «فالآن باشـروهن وابتغوا ما كتب الله لكم» فلم يشأ أن يتـرك المباشرة على عنانهـا فقال: أنت فى المبـاشرة لابد أن تتذكر ما كتبه الله، وما كتبه الله تبارك وتعالى هو الإعفاف ، والإنجاب، فالمـرأة تقصد إعفـاف زوجها حتـى لا تمتد عينه إلى امـرأة أخرى، وهو يقصد أيضًـا بهذه العملية أن يعفـها حتى لا تنظر إلى غيره. والله سـبحانه يريد الإعفاف فى تلك المسـألة لينشأ الطفل - من هذا اللقاء- على أرض صلبة من الطهر والنقاء.

وحتى لا يتشكك الرجل فى بضع منه هم أبناؤه، والـحق سبحانه يريد

طهارة الإنسان، فكل نسل يجب أن يكون محسوبًا على من استمتع، وبعد الاستمتاع، عليه أن يتحمل التبعة والمسئولية، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواه تبعة ذلك، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه.

﴿ **فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ أي: ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب، وفي ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

ويقول الحق سبحانه: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** ﴾ أي: إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق، وكان هناك على عهد رسول الله ﷺ أذانان للفجر: كان بلال يؤذن بليل، أي: وما زال الليل موجودًا، وكان ابن أم مكتوم يؤذن في اللحظة الأولى من الفجر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكوا» لكن أحد الصحابة- وهو عدي بن حاتم- قال: أنا جعلت بجواري خيطًا أبيض وخيطًا أسود، وأظل آكل حتى أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقالوا له: إنك لعريض القفا «أي: قليل الفطنة» فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل.

ويقول الحق عزَّ وجلَّ: ﴿ **ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ** ﴾. لقد كانوا يفهمون أن المباشرة في الليل حسب ما شرع الله لا تفسد الصوم، ولكن كان لابد من وضع آداب للسلوك داخل المسجد أو لآداب سنة الاعتكاف التي سنَّها رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان.

لهذا بيَّن الحق سبحانه أن حلال المباشرة بين الرجل وزوجته هو لغير المعتكف وفى غير ليل رمضان، أما المعتكف فى المسجد فذلك الأمر لا يحل له، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك فى زمن ما على وجودك فى مكان ما، ولذلك يقولون: «فلان معتكف هذه الأيام» أى: حبس حركته فى زمن ما فى مكان ما، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف مقصور على العشر الأواخر من رمضان فقط، ولكن للمسلم أن يعتكف فى بيوت الله فى أى وقت.

واختلف العلماء فى الاعتكاف، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائمًا حين يعتكف، واشترطوا أيضاً أن يكون الاعتكاف لمدة معينة، وأن يكون بالمسجد، وقالوا: إن أردت الاعتكاف، فاحصر حركتك فى مكان هو بيت الله.

وكثير من العلماء يقولون: إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف ما دمت قد نويت سنة الاعتكاف؛ بشرط ألا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا؛ لأنك جئت من حركتك المطلقة فى الأرض إلى بيت الله فى تلك اللحظة، فاجعل لحظاتك لله تعالى.

ولذلك حينما رأى رسول الله ﷺ رجلاً ينشد ضالَّته فى المسجد - أى: شيئاً قد ضاع منه - فقال له: «لا ردَّها الله عليك فإن المساجد لم تُبنَ لهذا».

لماذا؟ لأن المسجد مكان للعبادة، ولذلك أقول لمن يحدثنى فى المسجد بأى شىء يتعلق بحركة الحياة: «أبشرْ بأنها لن تنفع»؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط، إن لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك سبحانه وتناجيه، وتعيش فى حضن عنايته، فلماذا تأتى بالدنيا معك؟ وليكن لنا فى أحد الصحابة قدوة حسنة؛ كان يقول: كنا نخلع أمر

الدنيا مع نعالنا، وزاد صحابى آخر فقال له: وزِدْ يا أخى أننا نترك أقدارنا مع نعالنا.

انظر إلى الدقة، إن الصحابى المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد، ولكن يخلع أيضًا قَدْره فى الدنيا، فيمكن أن تأخذك الدنيا ساعات اليوم الكثيرة، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل، فضع قدرك مع نعلك خارج المسجد، وادخل بلا قَدْر إلا قَدْر إيمانك بالله، واجلسْ فى المكان الذى تجده خاليًا، فلا تتخطَّ الرقاب لتصل إلى مكان معين فى المسجد، فأنت تدخل بعبودية لله وقد يأتى مجلسك بجانب من يخدمك، والصغير يقعد بجانب الكبير، ولا تلحظ لك قدرًا إلا قدرك عند الله.

إن النبى ﷺ كان يجلس حيث ينتهى به المجلس أى: عندما يجد مكانًا له، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنسان مكانًا لإنسان آخر بالسجادة، وقد يدخل إنسان ليتخطى الرقاب، ليجلس فى الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتى هو إلى المسجد، وما دُمنا سنترك أقدارنا فلا تقل أين سأجلس وبجوار من؟ بل اجلس حيث ينتهى بك المجلس ولا تتخط الرقاب، وانْوِ الاعتكاف ولا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل فى دعوة رسول الله ﷺ بألا يبارك الله لك فى الضالة التى تنشدها وتطلبها.

وكان رسول الله ﷺ يعتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا فى المساجد؟ لا؛ إن الاعتكاف يصح فى أى مكان، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل؛ لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معاً.

يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ

الـلَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ ومـعنى «الحد»: هـو الفاصل المانـع من اختـلاط شيء بشيء، وحدود الله هي محارمه.

والرسول ﷺ يقول:

«.. ومن وقع فى الشبـهـات وقع فى الحرام كـراع يرعى حـول الحـمى يوشك أن يواقـعـه، ألا إن لكل ملك حـمى، ألا وإن حـمى الله تعـالى فى أرضه محارمه».

إذن: فالمحارم هي التي يضع الله لها حداً فلا نتعداه، ولنا أن نلحظ أنه ساعة ينهى الله عن شيء فهو يقول: «فلا تقربوها» وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه: «فلا تعتدوها»؛ وفي ذلك رحمة من الله بك أيها المؤمن.

فـلا تجعل امـرأتك تأتيك وأنت في مـعتكفك؛ فـقـد تكون جمـيلة، صحـيح أنك لا تنوى أن تفعل أى شـيء، لكن عليك ألا تقرب أسـباب النواهي، ومثال ذلك: تحريم الخمر، لقد أمـر الحق سبحانه باجتنابها أى: ألا تقرب حتـى مكان الخمر؛ لأن الاقتـراب قد يُزين لك أمر احتـسائها، إذن: فلكي تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النواهي، وفي الأوامر عليك ألا تتعداها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في سورة المائدة:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِيـنَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾ .

[المائدة: ٥].

يبدأ الحق سبحانه الآية بقوله: «اليـوم أحل لكم الطيبات» ليؤكد على

أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمـر الطيب إلا من زاوية أنه مُحلَّل من الله.

والحق سبحـانه يقول: «وطعام الذين أوتوا الكتـاب حل لكم وطعامكم حل لهم» فهل كل طعـام أهل الكتاب حل لنا؟ إن بعـضهم يأكل الخنزير. لا، بل الحلال من طعـام أهل الكتاب هو الطعـام الذى يكون من جنس ما حلل الله لكم، ولا يستقـيم أن يسـتنكف الإنسان من أنه طعـام أهل كتاب؛ لأن الحق سـبحانه وتعالى يريد أن يجـعل من الإنسان الذى ارتبط بالسمـاء ارتباطاً حـقيـقياً كالمسلمين، ومـن ارتبطوا بالسمـاء وإن اختلف تصورهم لله، يريد سبحانه أن يكون بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميـعاً بالسماء، ويجب أن يعاملوا على قـدر ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسماء.

إياك أن تقول بمقاطعـة أهل الكتاب. لا، ولكن انظر إلى طعامـهم فإن كان من جنس الطعـام المحلل فى الإسلام فهـو حلال، ولا يصح أن تمنع واحدًا من أهل الكتاب من طعامك؛ لأن الله سبـحانه يريد أن ينشىء شيئاً من الألفـة يتناسب مع الناس الذين سـبق أن السـماء لهـا تشـريع فيـهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا فى تصوره.

وضرب لنا الحق سـبحانه المثل مع رسول الله ﷺ، فـفى أول مجىء الدعوة الإسلامـية، واجهت معسكراً ملحـداً يعبد النار، ولا يؤمن بالإله وهو معـسكر فارس؛ ومـعسكرًا يؤمن بالإلـه وهو معسكر الـروم؛ كانت هناك قوتان فى العالم: قوة شرقية وقوة غربية، وعندما يأتى رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله، فـلابد أن يكون قلبـه- وقلوب المؤمنـين معـه- مع الذين آمنوا بإله وبمنهج ورسالة، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله.

ولنر العظمة الإيمانية فى الرسـول ﷺ نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أَوْلَى عنده ممن يكفرون بـالله، ولذلك عندما قامت الحرب بين فـارس والروم كانت الغلبـة أولاً لفارس، وكـانت عواطف الرسـول ﷺ والذين آمنوا معه مع الروم؛ لأنهم أقـرب إلى معسكر الإيمان الوليد- وإن كانوا يكفـرون بمحمد - فقد كانوا يؤمنون بـالله، وأن هناك منهجاً وهناك يوم بعث، ولذلك يضربهـا الحق سبحانه وتـعالى مثلاً فى القـرآن ليعطينا عـدة لقطات، وأولى هذه اللقطات هـى أن المسلمين فى جـانب من عنده رائحة الإيمان، فيقول سبحانه:

﴿ الـم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾ .

[الروم: ١ ـ ٥].

وتبدأ هذه الآيات بـخبر عن هزيمة الروم، ثم نبـوءة من الحق سبـحانه وتعالـى بأنهم سيَغلبـون فى بضع سنين، ويوم نصرهم سـيفـرح المؤمنون بنصر الله، وتنظر القوة الإسـلامية التى جاءت لتؤسس ديناً واسعـاً جامعاً مانعـاً إلى معركـة بين دولتين عظميين كلتيـهما على أقـصى ما يكون من الرقى الحضارى، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم ويحزن المسلمون لأن الفرس قـد غَلَبت، فيـأتى الحق سبحـانه بالخبـر اليقين وهو انتـصار الروم.

من الذى يستطيع أن يحكم فى نهـاية معركة بين قـوتين عظميين؟ إنه حكم لا يستـغرق يوماً، حـتى ولو كان قـائله عرف أن هناك مدداً قـادماً للقوة التى ستنتصر، إنه حكم يسـتغرق بضع سنين، فمن الذى يستطيع أن يتحكم فى معـركة ستحدث بعد بـضع سنين؟ لا يستطيع الرسول ﷺ أن

وأسلحتها، لكن الأمر يأتي كخبر موثق من الله تعالى:

﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾.

[الروم: ٣].

وهذا كلام موثق، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبدًا، وعندما سمع أبو بكر الصديق هذه الآية، قال: لقد أقمت رهانًا بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين، وطالبه الرسول ﷺ أن يمد مدة الرهان لأن الله سبحانه قال: «فى بضع سنين» والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، ولذلك قال النبى ﷺ لسيدنا أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ: فَزايِدْهُ فى الخطر ومادّه فى الأجل فجعلت مائة قلوص «ناقة» إلى تسع سنين، كأن هذا الأمر قد لقى الوثوق الكامل من المؤمنين؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر.

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول ﷺ كانت مع الذين يؤمنون بكتاب وبرسول، ونحن هنا نجد الحق سبحانه يحلل لنا مطاعمة أهل الكتاب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله وبمنهج السماء: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم».

وبيّن الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى حينما قال:

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ .

[الممتحنة: ٨، ٩].

فالحق سبحانه يريدنا أن نوازن فى أسلوب تعاملنا فلا نساوى بين ملحد مشرك ومؤمن برسالة سماوية- وإن كفر برسول الله- وأن يكون هناك قدر

مشرك ومؤمن برسالة سماوية- وإن كفر برسول الله- وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنسانى، فالذى يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذى يكون -حلالاً فى منهج الإسلام، ويجب أن ينتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم فى ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال لنا، فلا يشرب المسلم خمراً، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير.

والطعام -كما نعلم- وسيلة لاستبقاء الحياة، وها هو ذا سبحانه ينتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل؛ فقد أحل الله تبارك وتعالى لنا أن نتزوج من بناتهم «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان».

والمحصنة لها معنيان: وهى إما أن تكون الحرة فى مقابل الأَمة، وإما أن تكون المتزوجة؛ لأن الإحصان يعنى: الوقاية من أن تختلط اختلاطاً غير شريف، وكانت الحرة قديماً لا تفعل الفعل القبيح، وكان البغاء مقصوراً على الإماء؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل، وهى مُهْدَرة الكرامة، ولذلك نجد أن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله ﷺ تساءلت: يا رسول الله أوَ تزنى الحرة؟! كأن الحرة لم تكن لتزنى فى الجاهلية؛ لأن الحرة تستطيع أن تمتنع عكس غيرها.

والمحصنة أيضًا هى المتزوجة، ويساوى الحق سبحانه بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب، والمراد هنا الحرة العفيفة، ويشترط المهر لكل واحدة منهن.

وبعض العلماء يقول: عندما تتزوج مسلمة يكفى أن تسمى لها المهر، لأن الدين الواحد يعطى الأمان العهدى، أما الزواج من كتابية فيجب أن

يحـدد الإنسان المهـر وأن يقـرره وأن يوفى بذلك فـالإيتاء هو أن يسـمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه الشهود. ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخرًا، وبشرط أن يكون الرجل محصنًا أى: متعففاً.

ويحدد الحق سبحانه الأمر بقوله : «غير مسافحين ولا متخذى أخدان» أى: صـدائق لهم دون زواج، والسفح: هو الصب. والمرأة البغى هى من يسـفح معـهـا أى رجل، والخدن: هى الخليلـة أو العشـيقـة دون زواج، والخدن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى، وإياك أن تفكر فى أمر إقـامة علاقة زواج مـتعة، بل لابد أن يكون الإقبـال على الزواج بنية الزواج المستمر لا الزواج الاستمتاعى.

ويقول الحق سـبحانه بعد ذلك: «ومن يـكفر بالإيمان فقد حـبط عمله وهو فى الآخـرة من الخـاسريـن»؛ لأن فائدة الإيمان أن يـستـقـبل المؤمن الأحكام ممن آمن به إلهـاً وينفذها، فإن سـترت شيـئاً من أحكام الله التى آمنت بها فـقد كـفرت بالإيمان، والحق سبـحانه لا يضره أن يـكفر الناس جميـعاً؛ لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متّصف بكل صفـات القدرة والكمال.

إذن: فالعلم كله لا يضيف إلى الله شـيئاً، فقبل أن يخلق الله سـبحانه الإنسان كانت كل صفات الكمال مـوجودة لله، وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان، فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التى شرعها الله له، وستر حكمـاً منها فكأنه كفر بقضيـة الإيمان، وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان، فهذا لـون من الكفر، ويا ليت من يفعل ذلك أن يقول: «إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على نفسى».

ففى هذه الحـالة يكون الإنسان مؤمناً عـاصياً يسـتغفـر الله أو يتوب، أما الكفر فلا. والكفـر بالإيمان يؤدى إلى حبط العمل، وهذا دليل على أن

الحق سبحانه يخاطب إنساناً يلتـزم فى بعض الأشياء ولا يلتزم فى البعض الآخر، وهنا يبيِّن الحق سبحانه للإنسان: إن ما أديت من خير فى أعمالك سيذهب بثـوابه ويحبط جزاءه ما منعت تنفـيذه من أحكام الله وجاء الحق سـبـحانه بكـلمة «حـبط» التى تـدل على أن العـمل بطل وذهب ذهاباً لا يعود، فالماشـية حين تأكل طعاماً لم ينضج بعـد وإن كان من جنس ما تطعم مثل البرسيم فى بدايته ويسمى «الرِّبة»، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يحدث لها انتفاخ فى البطن وتموت.

والعرب تسـمى هذا الداء الحُبَاط، فالحَبَط- إذن -هو انتـفاخ البطن فى الماشية التى تأكـل أكلاً غير مناسب لها، ويظن صـاحبها أنهـا قد سمنت بينما هى تموت .

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله سبحانه وتعالى.

❊ ❊ ❊


حقوق
الزوجة على زوجها

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) ﴾.

[النساء: ٤].

والمقصود بـ «صدقاتهن» هو المهور، و«النِّحلة» هى العطية، وهل الصداق عطية؟ لا. إنه حق وأجر بضع، ولكن الله سبحانه يريد أن يبيِّن لنا: أىْ :فليكنْ إيتاء المهور للنساء نحلة، أى: وازع دين لا حكم قضاء.

وانظر إلى اللمسات الإلهية والأداء الإلهى للمعانى، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتى:

الرجل يتزوج المرأة، وللرجل فى المرأة متعة، وللمرأة أيضاً متعة أى: أن كُلاً منهما له متعة وشركة فى ذلك، وفى رغبة الإنجاب، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئًا، لأنها ستستمتع وأيضاً قد تجد ولدًا لها، وهى ستعمل فى المنزل والرجل سيكدح خارج البيت، ولكن هذه عطية قررها الله سبحانه كرامة للنساء «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» والأمر فى «آتوا» لمن؟ إما أن يكون للزوج فقوله: «وآتوا النساء صدقاتهن» يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل، وصار الرجل ملزمًا بالصداق، ومن الممكن أن يكون دَينًا إذا تزوجها بمهر فى ذمته يؤديه لها عند يساره، وإمَّا أن يكون الأمر لولى أمرها فالذى كان يزوجه أخته مثلاً، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها، والأمر فى الآية - إذن - إما أن يكون للأولياء، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريحيات الفضل.

لذلك يقول سبحانه: «فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئًا مريئًا».

لقد عَرَّف الحق سبحانه الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أو ولى الأمر فى أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع، ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر، وهذا أدعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما، والمراد هنا هو طيب النفس، وإياك أن تأخذ شيئًا من مهر الزوجة التى تحت ولايتك بسبب الحياء، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس «فإن طبن لكم عن شىء منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا».

والهنىء هو الشىء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك، لكنك قد تأكل شيئًا هنيئًا فى اللذة وفى المضغ وفى الأكل ولكنه يورث متاعب صحية. إنه هنىء، لكنه غير مرىء، والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة، وهو يختلف عن الطعام الهنىء غير المرىء الذى يأكله الإنسان فيطلب بعده العلاج.

إذن: فكل أكل يكون هنيئًا ليس من الضرورى أن يكون مريئًا، وعلينا أن نلاحظ فى الأكل أن يكون هنيئًا مريئًا.

والإمام على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه وكرم وجهه ـ جاء له رجل يشتكى وجعًا، والإمام علىٌّ ـ كما نعرف ـ مدينة العلم والفتيا، وهبه الله تعالى مقدرة على إبداء الرأى والفتوى.

لم يكن الإمام علىٌّ طبيبًا.. لكن الرجل كان يطلب علاجًا من فهم الإمام علىٍّ وإشراقاته.

قال الإمام علىٌّ للرجل: خذ من صداق امرأتك درهمين واشتر بهما عسلاً، وأذب العسل فى ماء مطر نازل لساعته ـ أى: قريب عهد بالله ـ واشربه فإنى سمعت الله يقول فى الماء ينزل من السماء:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ .

[ق: ٩].

وسمعته سبحانه وتعالى يقول في العسل:

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ .

[النحل: ٦٩].

وسمعته يقول في مهر الزوجة:

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ .

[النساء: ٤].

فإذا اجتمع في دواء البركة والشفاء الهنيء والمريء عافاك الله إن شاء الله. لقد أخذ الإمام عليٌّ - رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه - عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعًا، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام عليٌّ علاجًا من آيات القرآن.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) ﴾.

[النساء: ١٩].

وقلنا: ساعة ينادي الحق سبحانه عباده الذين آمنوا به يقول سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا»، فمعناها: يا من آمنتم بي بمحض اختياركم، وآمنتم بي إلهًا له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية، ما دمتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التي يطلبها منكم. إذن: فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق سبحانه يقول:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ .

[البقرة: ٢٥٦].

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء باستضعافهن، لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غَبْن وظلم وحيف عليهن، فقال الحق سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا» وكلمة «ورث» تدل على أن واحدًا قد توفّى وله وارث، وهناك شىء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحدٌ بعده؛ لأنه عندما يقول: «لا يحل لكم أن ترثوا»، فقد مات مورِّث؛ ويخاطب وارثًا.

إذن: فالكلام فى الموروث، لكن الموروث مرة يكون حلالاً، ولذلك شرع الله تقسيمه، لكن الكلام هنا فى متروك لا يصح أن يكون موروثا، ما هو؟

قال سبحانه: «لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً»، فهل المقصود ألاّ يرث الوارث من مورثه إماء تركهن؟ لا. إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتى تركهن، ولكن عندما تنصرف كلمة «النساء» تكون لأشرف مواقعها أى: للحرائر، لأن الأخيرات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين، «لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً»، وهل يوجد ميراث للنساء برضى؟ وكيف تورث المرأة؟

ننتبه هنا إلى قوله سبحانه: «كرهاً»، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات وعنده امرأة جاء وليه، ويلقى ثوبه على امرأته فتصير ملكاً له، وإن لم تقبل فإنه يرثها كرهاً، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها، أو يأتى واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك؛ لذلك جاء القول الفصل:

«لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن»، و«العضل» فى الأصل: هو المنع، ويقال: «عضلت المرأة بولدها»، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط، فالمرأة ساعة تلد فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة،

فبدلاً من أن تنبسط العضلات - لتفسح للولد أن يخرج - تنقبض، فتأتى هنا العمليات التى يقومون بها مثل القيصرية.

إذن: فالعـضل معناه مـأخوذ من عـضلت المرأة بولدها أى: انقـبضت عضلاتهـا ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليـد، وعضلت الدجاجة ببيـضها أى: أن البيـضة عندما تكون فى طريقهـا لتنزل فتنقبض العـضلة فلا تنزل البيضة، لأن اختلالاً وظيفياً قد حـدث نتيجة للحركة الناقصة، ولماذا تأتى الحركة ناقصـة ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يـجعل الأسباب فى الكون تعمل آلياً وميكانيكياً بحيث إذا وجدت الأسـباب تحدث النتيجة، لا ففوق الأسباب مسبِّب إن شاء قال للأسباب: قفى فتقف.

إذن: فكل المخالفات التى نراها تتم على خـلاف ما تؤديه الأسباب إنما هى دليل طلاقة القدرة الإلهية، فلو كانـت الأشياء تسير هكذا ميكانيكياً، فسـوف يقول الناس: إن الميكانيكا دقيـقة لا تتخلف، لكن الحق سبـحانه يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه فى ملكه، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة، ثم خلق الميكانيكا فى الكون والأسـباب ثم تركها تتصـرف، لا، هو يبيِّن لنا: أنا قـيـوم لا تأخـذنى سِنَةٌ ولا نوم، أقـول لـلأسـبـاب اعـملى أو لا تعملى، وبذلك نلتفت إلى أنه هو سبحانه المسيطر.

وتجد هذه المخالفات فى الأشـياء الشاذة فى الكون، حتى لا نُفتن برتابة الأسبـاب، ولنذكـر الله باستـمرار، ويكون الإنسـان على ذِكْرٍ من واهب الأسبـاب ومن خالقها، فـلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسـباب مستـمرة دائماً، ويلفـتنا الحق سبحانه إلى وجـوده، فتختلف الأسبـاب لتلفتك إلى أنها ليست فـاعلة بذاتها، بل هى فاعلة لأن الله سبحـانه هو الذى خلقها وتركها تفعل، ولو شاء لعطلها.

وحدث مثل هذا فى مـعجزة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث ألـقاه قومه فى النار ولم يُحرق، وكـان من الممكن أن ينجى الله سبـحانه إبراهيم بأية

طريقة أخرى. ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم؟ إن كانت المسألة كذلك فما كان ليمكّنهم منه، لكنه سبحانه مكنهم منه وأمسكوه ولم يفلت منهم، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما ألقوه فى النار، وكان المطر كفيلاً بإطفاء النار، لكن لم تمطر السماء بل وتتأجج النار، وبعد ذلك يقول لها الحق سبحانه:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾.

[الأنبياء :٦٩].

فهل هذا غيظ لهم أم لا؟ هذا غيظ لهم؛ فقد قدرتم عليه وألقيتموه فى النار، وبعد ذلك لم ينْزل مطر ليطفئ النار، والنار موجودة وإبراهيم فى النار، لكن النار لا تحرقه، هذه هى عظمة القدرة الإلهية.

إذن: فما معنى «تعضلوهن»؟ العضل: أخذنا منه كلمة «المنع»؛ فعضلت المرأة أى: قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد، وأنت ستعضلها كيف؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعى حين مات زوجها، وأن من حقها بعد أن تنقضى العدة أنْ تتزوج من تريد أو من يتقدم لها،إن الحق سبحانه يقول: «ولا تعضلوهن» أى: لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن، لماذا تفعلون ذلك؟ «لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن» كأن هذا حكم آخر، لا ترثوا النساء كرهاً هذا حكم، وأيضاً لا تعضلوهن حكم ثان.

ومثال ذلك: عندما يكون الرجل كارهاً لامرأته فيقول لها: والله لن أطلقك، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجاً ولا أمكنك أيضاً من أن تتزوجى.

وذلك حتى تفتدى نفسها فتُبرئ الرجل من النفقة ومؤخر الصداق؛ ومن أجل ذلك يحمى الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال.

ولكن متى تعضلوهن؟ هنا يقول الحق سبحانه : «إلا أن يأتين بفاحشة

مبينة» لأنهم سيحبسونهن، وهذا قبل التشريع بالحد، وقال بعض الفقهاء: للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدى به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عشرة، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج.

ثم يقول الحق سبحانه: «وعاشروهن بالمعروف» وكلمة «المعروف» أوسع دائرة من كلمة المودة؛ فالمودة هى أنك تحسن لمن عندك ودٌّ له وترتاح نفسك له، لأنك فرح به وبوجوده، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئًا يدعَّون به أن فى القرآن تعارضًا فيقولوا: قرآنكم يقول:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ .

[المجادلة: ٢٢].

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحدًا من عشيرته لمجرد كفره، والقرآن فى آية أخرى من سورة لقمان يقول:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾.

[لقمان: ١٥].

ونقول: إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف، فـ «الودّ»

شيء ،و«المعروف» شيء آخر. الود يكون عن حُبٍّ، لكن المعروف ليس ضرورياً أن يكون عن حُبّ، ساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل وألبى احتياجاته المادية، هذا هو المعروف، إنما الوُدّ هو أن أعمل لإرضاء نفسى، وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُدّ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف؛ لأنه حتى لو كان كافراً سيعطيه بالمعروف.

ألم يعاتب الحق ـ سبحانه ـ إبراهيم عليه السلام فى ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه أنه غير مؤمن لذلك لم يضيّفه؟ فقال له ربنا سبحانه وتعالى: أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم؟ جرى فلحق بالرجل، وناداه فقال له الرجل: ما الذى جعلك تتغير هذا التغيُّر المفاجىء فقال له إبراهيم: «والله إن ربى عاتبنى لأنى صنعت معك هذا». فقال له الرجل: أربُّكَ عاتبك- وأنت رسول- فىَّ- وأنا كافر به- فنعم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه، وأسلم الرجل لله رب العالمين..

هذا هو المعروف، والحق سبحانه يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعاً كى لا يُخربوا البيوت، إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب فى البيت لخُربَ البيت، نقول لهم: لا، بل «عاشروهن بالمعروف» حتى لو لم تحبوهن، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك، يا هذا أنت لم تفهم عن الله؛ ليس المفروض فى المرأة أن تثير غريزتك، ولكن المفروض فى المرأة أن تكون مصرفًا، إن هاجت غريزتك كيماوياً بطبيعتها وجدت لها مصرفاً، فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها».

أى: أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غـريزتك بطبيعتهـا فأى مصرف يكفيك، ولذلك عندمـا جاء رجل لسيدنا عـمر - رضى الله عنه - وقال: يا أمير المؤمنين أنا كـاره لامـرأتى وأريد أن أطلقـها، قـال له: أَوَ لَمْ تُبنَ البيوت إلا على الحب، فأين القيم؟

لقد ظن الرجل أن امـرأته ستظل طوال عمرها خاطفـة لقلبه، ويدخل كل يوم ليقبلها، فـيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مـسألة وجدت أولاً وبعد ذلك تنبت فى الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل.

لذلك يقـول الحق سبحـانه: «وعاشـروهن بالمعروف فـإن كرهتـموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا»، أنت كرهتها فى زاوية وقد تكون الزاوية الـتى كرهتهـا فيهـا هى التى ستجـعلها تحـسن فى عدة زوايا؛ لكى تعـوض بإحسـانها فى الزوايا الأخـرى هذه الزاوية الناقـصة،

فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئاً، لا؛ فالمرأة مصرف طبيعى إن هاجت غرائزك بطبـيعتها وجدت لها مصرفاً، أما أن ترى فى المرأة أنها مُلهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط، وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط، لكن هناك مسائل أخرى كثـيرة، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسى، وخذ زوايا متعددة.

واعلمْ أن الله سـبحـانه وزع أسـباب فـضله على خلقـه، هذه أعطاها جمـالاً، وهذه أعطاها عقلاً، وهذه أعطاها حكمـة، وهذه أعطاها أمانة، وهذه أعطاها وفاء، وهنـاك أسباب كثـيرة جداً، فـإن كنت تريد أن تكون منصفاً حكيماً فـخُذ كل الزوايا، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إهاجـة الغـريزة، هنا نقـول لك: ليـست هذه هى الزاوية التى تصلح لتقـدير المرأة فقط. «فعـسى أن تكرهوا شيئـاً ويجعل الله فيه خـيرًا كثيراً».

وانظر إلى الدقة فى العبارة «فعسى أن تكرهوا» فأنت تكره؛ وقد تكون مُحقاً فى الكراهية أو غير مُحقّ، إنما إن كرهت شيئاً يقول لك الله عنه: «ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا» فاطمئن فأنت إن كرهت فى المرأة شيئاً لا يتعلق بدينها، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك فى بقية الزوايا خيرًا كثيرًا، وما دام ربنا سبحانه هو مَن يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيرًا فى نواحٍ متعددة، إن أية زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيراً كثيرًا.

إن الحق سبحانه يطلق القضية هنا فى بناء الأسرة ثم يُعمِّم، وكان بإمكانه أن يقول: فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيراً، لا؛ فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة فى كل شيء قد تكرهه، وتأتى الأحداث لتبين صدق الله فى ذلك، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبيَّن له وجه الخير فيها، وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائماً غير دقيق، فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يأتى بالأشياء مخالفة لأحكامك «فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» فقدِّرْ دائماً فى المقارنة أن الكرهَ منك وجَعْل الخير فى المرأة من الله، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) ﴾ .

[النساء : ٢٠].

فإذا ضاقت بك المسـائل، بعد أن عاشرت بالمعـروف ولم يعد ممكناً أن تستـمر الحـياة الزوجـية فى إطار يرضى عنه الله، وتخـاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حـرم الله، ماذا تفعل؟ يقول سبحـانه: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج» أى: لك أن تستـبدل ما دامت المسألة سـتصل إلى جرح منهج الله، وعليك فى هذا الاستبدال أن تـرعى المنهج الإيمانى مثلما أشار به سيـدنا الحسن ـ رضى الله عـنه ـ على الرجل الذى كان يسـتشـيره فى واحد جاء ليخطب ابنته. قـال سيدنا الحسن ـ رضى الله عنه ـ: «إن جاءك الرجل الصـالح فزوِّجْهُ، فـإنه إنْ أحبَّ ابنتك أكـرمهـا، وإن كرههـا لم يظلمها».

والحق سبحانه يقول: «وإن أردتم اسـتبدال زوج مكان زوج» فهذا يعنى أن الرغبـة قد انصرفت عـن الأولى نهائياً، ولا يمكن التغلـب عليها بغـير الانحراف عن المنهج، وقد يحدث أن يضـيق الرجل بزوجته وهو لا يعانى من إلحاح فى الناحية الغريزية، فيطلقها ولا يتزوج، فما شروط المنهج فى هذا الأمر؟

يقول الحق سبحانه: «وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً». كلمة «قنطار» وكلمة «قنطرة» مـأخوذة من الشىء العظيم. وقنطار تعنى: «المال». وقدروه قديماً بأنه ملء مَسْك البقرة، و«المسك» هو الجلد، فعندما يتم سلخ البقـرة يصبح جلدها مـثل القربة، وملء مَسْكها يسـمى قنطاراً، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وَزْنِيّة، والحق سـبحانه حين يعظم المهر بقنطار يقول: «وآتيـتم إحداهن قنطاراً» فـهو يأتى لنا بمثل كبـير وينهـانا بقوله: «فلا تأخذوا منه شيئاً» لماذا؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذى تدفعه ليس منساحاً على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهى حـياتكما، بل المهر مجعول ثمناً للبضع الذى أبـاحه الله لك ولو للحظة واحدة، فـلا تحسبهـا بمقدار ما مكثتْ معك، لا، إنما هو ثمن البضع، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة.

إذن: فهذا القنطار عمره ينتهى فى اللحظة الأولى، لحظة تَمكُّنكَ منها. «وآتيتم إحداهن قنطاراً» وهذه هى المسألة التى قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: أخطأ عمر وأصابت امرأة، لأنه كان يتكلم فى غلاء المهور؛ فقالت له المرأة: كيف تقول ذلك والله يقول: «وآتيتم إحداهن قنطاراً»، فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه نهى- وهو على المنبر- عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: أما سمعت الله يقول: «وآتيتم إحداهن قنطاراً»؟ فقال: اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال: «إنى كنت قد نهيتكم أن تزيدوا فى صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب».

وعن عبد الله بن مصعب أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: «لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية من فضة، فمن زاد أوقية جعلتُ الزيادة فى بيت المال، فقالت امرأة: ما ذاك لك، قال: ولمَ؟ فقالت: لأن الله تعالى يقول: «وآتيتم إحداهن قنطاراً» فقال عمر: «امرأة أصابت ورجل أخطأ».

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول: «أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً» لماذا؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلاً، بل هو ثمن تمكنك منها، وهذا يحدث أوَّل ما دخلت عليها. وإن أخذت منها شيئاً من المهر بعد ذلك فأنت آثم، إلا إذا رضيت هى بذلك، والإثم المبين هو الإثم المحيط.

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول: «وكيف تأخذونه». إنه استنكار لعملية أخذ شىء من المهر بحيثية الحكم فيقول:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

[النساء: ٢١].

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ، لماذا؟ لأن الحق: قال: «وكيف تأخذونه» وانظر للتعليل: «وقد أفضى بعضكم إلى بعض». إذن: فثمن البُضْع هو الإفضاء، وكلمة «أفضى بعضكم إلى بعض» كلمة من إله؛ لذلك تأخذ كل المعانى التى بين الرجل والمرأة، و«أفضى» مأخوذة من «الفضاء» والفضاء هو المكان الواسع، و«أفضى بعضكم» يعنى :دخلتم مع بعض دخولاً غير مُضيَّق.

إذن: فالإفضاء معناه: أنكم دخلتم معاً أوسع مُدَاخَلَة، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التى تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبينها لك، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا، ودخلت معها فى الاتصال الواسع، أنفاسك، ملامستك، مباشرتك، معاشرتك، مدخلك، مخرجك، فى حمامك، فى المطبخ، فى كل شىء حدثت إفضاءات، وأنت ما دمت قد أفضيت لها وهى قد أفضت لك كما قال الحق سبحانه أيضاً فى المداخلة الشاملة:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

[البقرة: ١٨٧].

أىّ شىء تريد أكثر من هذا!؟ ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها، قد يغضب، ونقول له: يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرّمه على غيرك، وأعطتك عرضها، فحين تشتد عليك لا تغضبْ، وتذكَّرْ حديث رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى».

«وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً» والميثاق هو: العهد يؤخذ بين اثنين، ساعة سألت وليها: «زوِّجْنى» فقال لك: «زوَّجتك»، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطى أسرة جديدة، وكل ميثاق بين خلق وخلق فى غير العرض هو ميثاق عادى، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التى يتزوجها؛ فهذا هو الميثاق الغليظ، أى: غير

الليِّن، والله سبحانه لم يصف به إلا ميثاق الأنبياء فوصفه بأنه غليظ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ، ففى هذه الآية «أفضى بعضكم إلى بعض» إفضاء، وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لباساً وستراً للآخر «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» لهذا كان الميثاق غليظاً، وهذا الميثاق الغليظ يحتِّم عليك إن تعثَّرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها، فإن كنت قد أعطيتها قنطاراً إياك أن تأخذ منه شيئاً، لماذا؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء، وما دام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم، فلا تأخذ منه شيئاً، فالإفضاء ليس شائعاً فى الزمن كى توزعه، لا.

والحق سبحانه يقول: «وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً» هنا يجب أن نفهم أن الحق تعالى حين يشرِّع فهو يشرع الحقوق، ولكنه لا يمنع الفضل، بدليل أنه قال:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾.

[النساء: ٤].

إذن: فهناك فرق بين الحق وما طاب لكم، والأثر يحكى عن القاضى الذى قال لقومه: أنتم اخترتمونى لأحكم فى النزاع القائم بينكم فماذا تريدون منى؟! أأحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل؟ فقالوا له: وهل يوجد خير من العدل؟ قال: نعم، الفضل، فالعدل: أن كل واحد يأخذ حقه، والفضل: أن تتنازل عن حقك وهو يتنازل عن حقه، وتنتهى المسألة، إذن: فالفضل أحسن من العدل، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس:

فقول الحق جل شأنه:

﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾.

[البقرة: ٢٣٧].

ويقول سبحانه فى آية الدَّين:

﴿وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا ﴾.

[البقرة: ٢٨٢].

يأمركم الحق سبحانه أن توثقوا الدَّين . . لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون المدين نفسه، لأنه حين يعلم أن الدَّين موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره، لكن لو لم يكن مكتوباً فقد تُحدثه نفسه أن ينكره، إذن: فالحق تبارك وتعالى يحمى الدائن والمدين من نفسه حين قال: «ولا تسأموا أن تكتبوه».

وقال سبحانه بعدها:

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾

[البقرة: ٢٨٣].

فقد تقول لمن يستدين منك: لا داعى لكتابة إيصال وصكٍّ بينى وبينك، وهذه أريحية لا يمنعها الله فما دام قد أمن بعضكم بعضاً فليستح كل منكم وليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه.

وما دام قد جعل للفضل مجالاً مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك.

فما بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة.. وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذه الله من النبيين ومما بين الرجل والمرأة؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها، ولا من الزوج لغير زوجته. إن على الرجل أن يوفى المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئاً إلا إذا تنازلت هى. فقد سبق أن قال الحق سبحانه:

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ④ ﴾.

[النساء: ٤].

وما دامت النفس قد طابت، إذن: فالرضا بين الطرفين موجود، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة. فـالمهر حقهـا، ولكن يجب ألاّ يقبض بالفـعل، فهـو فى ذمة الزوج، إن شـاء أعطاه كله أو أخّره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه. ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كامـلاً فى مهـرها، إن كان قد أخـره كله فالواجب أن تأخـذه، أو تأخذ الباقى لها إن كان قد دفع جزءاً منه كمقدم صداق.

ولكن حين تنتقل ملكيـة المهر إلى الزوجة يفتح الله تعـالى باب الرضا والتـراضى بين الرجل والمرأة فقـال: «فإن طـبن لكم عن شىء منه نفسـاً فكلوه هنيئاً مريئاً» فهو هبة تخرج عن تراض؛ وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين.

وبعد ذلك يبقى حكم آخر: هَبْ أن الخلاف استعر بين الرجل والمرأة . . فماذا يكون العمل ؟

فى حالة كره الزوجة لزوجها ورغـبتها فى أن تخرج منه فلا جناح أن تفـتدى منه نفـسـها ببـعض المال لأنهـا كارهـة، وما دامت هى كـارهة، فسيـضطر هو إلى أن يأتى بزوجة جديدة، إذن: فلا مـانع أن تختلع المرأة منه بشىء تعطيه له:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾.

[البقرة: ٢٢٩].

الحق سبحـانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يُحفظ لهـا، ولذلك جاء بأسلوب تنـاول مسألة أخـذ الزوج لبعض مـهر الزوجة فى أسلوب التعجب:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾.

[النساء: ٢١].

فكأن قوله: «وكـيف تأخذونه» دليل على أنه لا يوجد وجـه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها، فساعة يستفهم فيقول: «كيف» فهذا تعجب من أن تحدث هذه المسألة، وقلنا: إن كل المواثيق بين اثنين لا تعطى إلا حقوقًا دون العـرض، ولكن ميثاق الزواج يعطى حـقوقًا فى العرض، ومن هنا جاء غـلظ الميثاق، وكل عـهد ومـيثاق بين اثنين قـد ينصب إلى المال، وقد ينصبُ إلى الخـدمة، وقد ينصبُ إلى أنك تعطيه مـثلاً المعونة، هذه ألوان من المواثيق إلا مسألة العرض، فمـسألة العرض عهد خاص بين الزوجين، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ الذى ينبغى على الزوجين احترامه ، والقيـام بواجباته خيـر قيام حتى تدوم الحـياة الزوجية وحـتى تدوم الألفة والمودة والرحمة فى الأسرة ومن ثم فى المجتمع الإسلامى كله..

* * *

فهرس

صدر حديثاً

الأحاديث القدسية

لفضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

تطلب الأجزاء من مكتبات الجمهورية للتوزيع
والنشر بجريدة الجمهورية

ت:٣٩٢٦٦٤٣
٣٩٢٣٧٤٩